حوار القرآن مع المخالفين
أصوله وأساليبه

التدقيق اللغوي

شروق محمد سلمان

إخراج

يحيى الأمين حسين يوسف

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

ISBN 978-9948-499-00-8

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+

الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي

mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

دائــــرة الشــــؤون الإســــلامية والعمــــل الخيــــري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

GOVERNMENT OF DUBAI

حوار القرآن مع المخالفين
أصوله وأساليبه

د. محمود أحمد الزين
كبير باحثين
في دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحيـة

الحمـد لله رب العالمـين، والصَّـلاة والسَّـلام على سـيدنا محمـد وعلى آله وصحبه ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فيسر «**دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - إدارة البحوث**» أن تقـدِّم إصدارَهـا الجديـد «**حـوار القرآن مـع المخالفين، أصوله وأسـاليبه**» لجمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفـة.

وهو كتاب يعرض أصول الحوار القرآني مع المخالفين، وأسـاليب هذا الحـوار يعرضها نظريـاً أولاً وعملياً ثانياً، يعرضها نظرياً بذكر بعض الأصول كقواعـد يتكئ عليهـا الحوار، وبذكر بعض الأسـاليب كقواعـد يتكئ عليها الحـوار أيضاً، ثم يعرض نماذج من الحوار القرآني مع المخالفين فيشـرحها جزءاً جزءاً ليكشـف تأثير هذه الأصول والأسـاليب في قوة الحوار وبراهينه، وفي قوة تأثيره على نفوس المخاطبين.

وبهـذا تكون دراسـة الحوار وسـيلة يتعلم منهـا الدعاة والمربـون كيفية الإقناع وكيفية التأثير على النفوس والقلوب وتنفتح بالدراسة أبواب الاستفادة من المنهج القرآني في محاورة المخالفين.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقـدم عظيم الشكر والدعاء لأسرة آل مكتوم

حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل سـخاء، وفي مقدمتها **صاحب السـمو الشـيخ محمد بن راشـد بن سعيد آل مكتـوم**، نائـب رئيس الدولـة، رئيس مجلس الـوزراء، حاكم دبي الذي يشـيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وينهض بطُلابه.

راجـين من العلي القديـر أن ينفع الأمة بهـذا العمـل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطـاء من أجل خدمة الإسلام وأهله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصَلَّى الله على النَّبيِّ الأميِّ الخاتم سيدنا محمَّـــد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور سيف بن راشد الجابري

مدير إدارة البحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه وورثته أجمعين .

وبعـــد:

فـإنّ الحوار سـبيل لنشر المبادئ والأفـكار ، وتبادل الثقافـات، ولكنه إذا خرج عن القوانين السـليمة انتشر به فسـاد في الأفكار والمبـادئ والقيم، ونتج عنهـا أضرار كثيرة . فسـلامة قوانين الحـوار ضرورة إنسـانية، وضرورة دينية وضرورة ثقافية عالمية؛ والبحث عن مناهج الحوار السليم خدمة إنسانية كبرى وفضيلة دينية فُضلى؛ ودراسـتها في نماذجها الراقية تقدم للإنسـانية فوائد كثيرة تنير سبل الخير، وتفتح أبواب الحق والهدى، ولاسيما ما جاء في القرآن الكريم: الكتاب الإنساني الأمثل .

وما نعانيه اليوم من فشو الفساد: كثير منه، بل أكثره يرجع إلى فساد أسس التفكـير والحوار، وقد اختلطت على الناس بسـببه جملة غير قليلة من الأحكام والأخـلاق والعقائد والمبـادئ، اختلطت بكثير من الأباطيل التي اندسـت في فكر أمتنا عبر الحوار مع الآخرين في شتى المجالات.

ومن أسوأ ما انتشر من أسس الحوار الباطلة ما يتردد على الألسنة من قول

بعضهـم : ليـس في العالم حقيقة ثابتة غير قابلة لإعـادة النظر بغية الوصول إلى نتائج جديدة قد تقلب ما مضى رأساً على عقب . فأصبح بعض المسلمين يجادل في قضايـا مـن الديـن هي من أرسـخ ما فيه وأثبتـه برهاناً ، ومـا كان كذلك لا يحتمـل إعادة النظر أصـلاً إلا إذا أمكن أن يعيد المرء نظره في أن الواحد نصف الاثنـين وأن جمع الواحد مع الواحد يسـاوي اثنين ، وكثـيراً ما نرى هذا الذي يزعـم إعادة النظر في هذه الأمور ليس أهلاً لأي نظر .

فنحن إذن بحاجة ماسـة لتصحيح مفاهيم الحوار وأساسـاته ومؤهلاته ، وفي ثقافتنـا العربيـة الإسـلامية كتب متخصصة في ذلك تدعونـا إلى التزود بها لتصحيـح واقعنا الحـواري والثقافي والدينـي ، وهناك أيضاً نـماذج من الحوار جديـرة أن نقتدي بها ونسـتفيد منها ولاسـيما القرآن الكريـم، فهو أرقى منهج في الحوار، وهو أيضاً يدعونا إلى أن ننظر في نماذجه وندرسـها ونستخلص منها أصـول الحوار وأسـاليبه . ومن أهم مـا نهتم به نماذج الحوار مـع المخالفين أي الذيـن لا يؤمنون بالقرآن ، أو يؤمنـون به ولكنهم مقصرون في حقه، مسرفون على أنفسـهم بـترك طاعته، فننظر كيف حاورهم القـرآن ، وما هي أصول هذا الحوار ، وأي الأساليب اعتمد في إقناعهم والتأثير عليهم .

وحـق هـذا البحث في الأصـل أن يكون اسـتقصائياً يتنـاول كل نماذج الحـوار مـع الآخريـن، ويسـتخلص الأصول مـن كل موضـع، ويقدمها في باقات متشـابهات، ويسـتعرض الأسـاليب باسـتقصاء وبيان يكشف كيف

يدخـل القرآن بحواره هذا مع المخالفـين في العقول والقلوب، فيوجهها إلى الحق فتعتنقه ، ولكن هذه الدراسة بهذا المنهج شيء يتطلب بحثاً طويلاً وزمناً ممتـداً وصبراً ودأبـاً ، ويحول ذلك دون إنجازه ، ولكن هذا لا يدعو إلى تركه بل يدعو إلى السـير فيه على مراحل تبـدأ ببحث مختصر يوضح فكرة البحث ويقدم لها نماذج ويقرّبها؛ فيكون مقدمة لبحث يستوفي القضية بشمول وعمق ونتائج أفضل ، وهذا ما دعاني إلى الاقتصار على الاختصار، وهو ما نصح به مدير إدارة البحوث في الشؤون الإسلامية جزاه الله خيراً ، وأضاف إلى ذلك أن المختصر أرغب للقارئ وأسرع فائدة .

وقد عرضت موضوعات هذا البحث عرضاً أقرب إلى طبيعة المقالات فلم ألجأ إلى نقل النصوص عن العلماء، والاستنتاج منها وشرحها ومناقشتها، فهذا ليـس من غرض هذا البحث وهو غـرض تثقيفي توجيهي ، ولهذا أيضاً لم ألجأ إلى طريقـة النقل عن العلماء عند شرح مواضع الأصول الحوارية والأسـاليب التـي اعتمد عليها الحـوار في الآيات القرآنية، إنما ذكـرت في آخر كل نص من البـاب الثاني ما اعتمدت عليه إجمالاً من كتب التفسـير، وعملت مثل ذلك في مواضع أخرى يسـيرة من الباب الأول، وذلك لأني ليس من غرضي التفسـير ومقارنة الأقوال لترجيح شيء على شيء، بل قصدي ألا أخرج في دراسة الحوار عما فسرت به الآيات ولكي تكون دراسة الآيات في هذا النطاق، وذلك أقرب إلى طريقة المقالات التي سلكتها .

وقد رتبت هذا البحث على الوجه التالي :

أولاً- المقدمـــة.

ثانياً- الباب الأول: وفيه فصلان (للدراسة النظرية):

الفصل الأول: أصول الحوار مع المخالفين في القرآن .

الفصل الثاني: أساليب الحوار مع المخالفين في القرآن .

ثالثـاً- البـاب الثـاني: صور من حـوار القرآن مـع المخالفـين، وهو ثلاثة فصول:

الفصل الأول: حوارات في قضية التوحيد.

الفصل الثاني: حوارات في قضية البعث يوم القيامة.

الفصل الثالث: حوارات منوعة.

رابعـاً- الخاتمـــة .

والله سـبحانه هو المسؤول أن يعين على إتمام هذا البحث على وجه سليم، وأن ينفع كاتبه وقارئه، وله الحمد أولاً وآخراً، وصَلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

***

الباب الأول

الأصول والأساليب

في حوار القرآن مع المخالفين

الباب الأول

الأصول والأساليب

في حوار القرآن مع المخالفين

يستعرض هذا الباب جوانب من أصول الحوار القرآني مع المخالفين، وجوانب من أساليبه، وذلك في فصلين:

- فصل للأصول التي اعتمدها القرآن في حواره معهم من ذكر مقدمات بيّنة تلجئ إلى الإقرار بالحق ، أو مُسلَّمات لديهم يقرّون بها ولا فرق بينها وبين ما هم منكرون له، وغير ذلك من الأصول التي تسوق المنصف إلى الإيمان بالحق ، وتفحم المعاند حتى ينكشف عناده ويبهت أمام البراهين الساطعة .

- والفصل الثاني للأساليب التي اعتمدها القرآن في حواره مع المخالفين، الأساليب التي كانت وسيلة في استنتاج ثمرات تلك الأصول وتثميرها للوصول بالمخاطب إلى الحق من ترفق وترحم يزيح عنه غشاوة العناد ، أو شدة وعيد وتوبيخ على ذلك العناد بعد كشفه لكل حاضر وسامع، وغير ذلك من أساليب التأثير على نفوس الذين يحاورهم ترغيباً في الحق وترهيباً من الباطل .

وفي كلا الفصلين كانت الاستشهادات بالنماذج من آيات القرآن هي أساس البيان وأساس إثبات الأصول والأساليب، دون النقل عن الكتب والتفاسير لتكون علاقة القارئ بهذه الأمور عن طريق القرآن مباشرة، ومن أراد غير ذلك النهج يمكنه أن يرجع إلى الكتب التي تركز على مقصوده، والله يجعل في ذلك خيراً بمنه وكرمه .

الفصل الأول

أصول الحوار القرآني

مع المخالفين

الفصل الأول

أصول الحوار القرآني مع المخالفين

يظهر لكل إنسان منصف قوة الحوار القرآني مع المخالفين بحيث لا يمكن للمخالفين أن يتنصلوا من النتيجة التي يسوق إليها هذا الحوار ، وسبب ذلك هو أن هذا الحوار لا يسير إلا في طريق الحق بواسطة البراهين البينة الواقعية التي يضطر الخصم إلى التسليم بها أو الاستسلام .

هذا النهج في الحوار له أصول يتكئ عليها، وهي توجب التسليم للنتائج التي يريدها الله تعالى من هذا الحوار ، والدراسة الاستقصائية توجب على صاحبها أن يحصي هذه الأصول ويعدها واحداً واحداً ، أما الدراسة التي تقتصر على نماذج دون استقصاء فيكفي فيها ذكر ما يظهر من نماذجها كهذه الدراسة ، وقد ظهر لي من الأصول في الدراسة الجزئية مجموعة أصولٍ رأيت أنها هي التي تأخذ بيد القارئ إلى الاقتناع بالحجة والاهتداء بها عند المنصفين ، وهي التي تبهت المعاندين وتفحمهم فيقفون عاجزين أمامها هم ومَن معهم ومَن وافقهم عليها أو أيّدهم ، وليس ما أذكره في هذا الباب هو كل أصول الحوار القرآني مع المخالفين – كما سبق بيانه – ولكنها من أهم تلك الأصول لما يبدو من نتائجها التي يستعرضها البحث إن شاء الله تعالى من خلال السياق القرآني .

*** فمن أول تلك الأصول أن القرآن لكونه حقاً كله يسوق أدلة كلها حق حتى في نظر الخصم المحاور، أي هي مما يُسلّم به الخصم ولا يستطيع أن ينكره وإن راوغ في قبوله،** وذلك كقوله تعالى في الأمر بتوحيده :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

والسياق هنا ليس سياقَ حوار ظاهر، ولكن القرآن نزل في أمة مشركة كانت ترفض التوحيد وتجادل فيه ، وهذا دعوة لهم إلى التوحيد فهو يشبه الحوار ، ثم ما جاء بعده من الكلام عن نبوة سيدنا محمد ﷺ أقرب إلى طبيعة الحوار لأنه يسوق ذكرَ حالِ الخصم في شَكِّه بالنبوة وكتابها المعجز فيرد عليه ، ثم يذكر عجزَ الخصم وما يلزمه أن يعمل عند العجز عن الدليل المطلوب منه وهو الإيمان توقّياً من عاقبة الكفر بعد قيام الحجة .

والقرآن هنا حين دعاهم إلى التوحيد لم يبدأ بالحديث عن شركهم، وإنما بدأ كلامه أمراً بالعبادة لله مقروناً أمره بما يوجب عبادته من صفاته وهو: أنه خلقهم وخلق الذين مِن قبلهم - وهم يُقرّون بأنه خالقهم لكنهم يشركون به- والعبادة إنما يستحقها من الإنسان خالقه دون سواه، ثم ذكر موجباً آخر لعبادته وهو خلقه ما تقوم به حياتهم: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ ﴾، وهذا كله مما يُقِرُّون به .

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢١، ٢٢ .

ثم ذكر سبحانه بعد هذه الحجة ما يقتضي الخطأ في الشرك، ونهاهم عنه بعد ذكر حجته في بطلان عقيدة الشرك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له أي لا أمثال له فيما سبق من موجبات عبادته وحده لا شريك له.

فانتقل بهم مما يسلمون به وهو أنه خالقهم المنعم عليهم، إلى ما يلزمهم من علمهم وتسليمهم بذلك وهو توحيده سبحانه ونبذ الشرك به.

وشبيه بهذا قوله تعالى في حوار الذين استنكروا إعادة الخلق يوم القيامة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]، فهذا المحاور يقر بأن الله هو الذي خلق الإنسان وعظامه أول مرة فينبغي ألا يستبعد إعادة الخلق لأن الإعادة كالإنشاء، بل في الموازين البشرية أيسر، فينبغي أن يسلم بها ويؤمن بها، ولذلك نبهه الله تعالى إلى أنه حين تعجب وقال من يحيي العظام وهي رميم، كان غافلاً عن أن الله هو الذي أنشأه، ولذلك ذكّره سبحانه بالخلق الأول: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ وأتبع ذلك بذكر مظهر آخر من مظاهر قدرته: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾[2]، ثم ذكرهم بدليل آخر يُقرّون به وهو خلق السموات والأرض، ذكرهم به على سبيل المقايسة الأولوية: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾[3]، ثم

(١) سورة يس: الآيتان ٧٨، ٧٩.
(٢) سورة يس: الآية ٨٠.
(٣) سورة يس: الآية ٨١.

ذكـر بعد البراهـين النتيجة التي تلزمهم : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي يخلق الإنسان مرة ثانية، وما يشاء متى شاء .

*** ومن أصول الحوار القرآني الاعتماد على دليل لا يمكن للخصم إنكاره، ويلزمه التسـليم به دون تردد حتى لا يسـتطيع جواباً، وإن كان في الأصل ينكر ما يلزمه بهذا الدليل**، كقوله تعالى في حوار إبراهيم عليه السـلام مع من يدعي الربوبية أو الاشتراك فيها بسبب ما آتاه الله من الملك: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾[1] وهو أمر لا يسـتطيع أحد غير الله أن يدعيه لنفسـه ، فغالط هذا الجبار الحاضرين وكابر وادعاه لنفسـه: ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ أي يعفو عمـن حكـم عليه بالموت ويقتـل آخر ، وهذا ليـس إحيـاءً، وردّه يفتح حواراً عقيـماً، فتركـه إبراهيم عليه السـلام وألجأه إلى الإقـرار إلجاءً يبهتـه وإن كابر : ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ فكانت النتيجة أنه ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ لأن الحجة ظاهرة لا مجال لأحد أن يكابر فيها مهما طغى وتجبر ، ولكن هذا يظهر الحق لمن حوله فلا يغْترّون بل يعرفون الحق وإن عجزوا عن أن يظهروا ما في نفوسهم على ألسنتهم .

*** ومن أصول الحوار القرآني أنه يظهر للمخالف ما في موقفه من التناقض إظهـاراً لا يمكنه أن يتهرب منه**، وإظهار التناقض يلزمه أن يتراجع ويصير إلى الموقف الحق كما في حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه حول قضية التوحيد وما يقابلها من عبادة الأصنام مع الله تعالى حيث قال لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨ .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]، وهذا يعني أن من حق الصانع على من يصنعه أن يعبده، وهؤلاء يفعلون عكس ذلك: يعبدون ما يصنعون بأيديهم ، ويتركون عبادة من خلقهم وخلق أصنامهم التي يعبدونها . وقد عطف سبحانه الأصنام على القوم في قوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لكي لا يتوهم أحد أن صنع القوم للأصنام لا يعني أنهم يستحقون من الأصنام أن تعبدهم – لو أمكنها ذلك – لأنها وإن كانت عمل أيديهم فهي خلق الله لا خلق أيديهم فالخالق سبحانه واحد هو الله تعالى .

وقد يكون التناقض الذي يراد إظهاره بين موقف الخصم وما يناقضه ليس مباشراً ؛ وإنما التناقض مع الأساس الذي بني عليه هذا الموقف كما في قوله تعالى رداً على من يدعي لسيدنا عيسى وأمه الألوهية : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2] .

فالتناقض هنا – بين عبادة الناس لهما وكونهما يأكلان الطعام – غيرُ بيّن جليّ، ولكن التناقض البيّن الجلي واقع بين الأساس الذي بنوا عليه هذه العبادة وهو دعواهم أنهما إلاهان ، لأن شأن الإله ألا يحتاج إلى شيء مما يخلقه ، والحاجة إلى الطعام تناقض صفة الألوهية، فإذا كانا يأكلان الطعام كما رآهما

---

(١) سورة الصافات: الآيتان ٩٥، ٩٦ .

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٥ .

النـاس، كانا عن صفة الإلهية بمعزل بعيد، وكانـت عبادتُهما المترتبة على ثبوت الإلهية لهما عن الحق بمعزل بعيد أيضاً ، ووراء هذا المعنى وهو أنهما كانا يأكلان الطعـام معنى آخر يشـير إليـه أكل الطعام هو أشـدُّ مناقَضةً مـع دعوى الإلهية ولم يذكـره القـرآن تنزهاً وذلك أنّ مَـنْ كان يأكل فهو يحتـاج إلى قضاء الحاجة من بول وغائط ، فمن وعى ذلك وعرفه اسـتبعد دعوى الإلهية لهما، واسـتبعد عبادتهما كل الاستبعاد .

*** ومـن أصول الحـوار القرآني مـع المخالفين أن يكشـف الشـبهات التي أوقعتهـم في الضلال كشـفاً لا يدع لهم عـذراً في ركوب طريـق الضلال** كما في الآيـات الآتيـة : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَـذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَـادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡـبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِـ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡـمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

فهذه الآيات تنقض شبهاتٍ اعتمد عليها من اتخذ الأنبياء والصالحين آلهةً من دون الله ، زعموهم أبناءَ الله تعالى .

والشبهة في زعمهم أنهم أبناء الله: كرامتُهم على الله تعالى، فبيّن الله تعالى أن كرامتهم عليه لا تخرجهم من صفة العبد : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَـادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ فهم رغم سمو المكانة عند الله تعالى ﴿ لَا يَسۡـبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِـ ﴾ أي لا يتكلمون

(١) سورة الأنبياء: ٢٦-٢٩ .

في أي شأن دون أن يعلموا رضاه به ، وهم رغم سمو المكانة عنده ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ وكل ذلك يعني أنهم في نطاق العبدية لا يخرجون عنها، بل لو أن أحدهم قال إنه إله – كما يزعم المشركون – فهو معرض بذلك نفسه لعذاب جهنم، فهم خاضعون لله يفعل بهم ما يشاء، ويحاسبهم كما يحاسب سائر العباد .

*** ومن أصول الحوار القرآني مع المخالفين أنه يبين ما في كلامهم من الصواب فيقره، ثم يبين ما في كلامهم من الباطل فيرده** ، كما سبق في الآية السابقة حيث كانت الشبهة لديهم هي عظم مكانة أولئك الأنبياء والصالحين عند الله ، فبيّن سبحانه أن كرامتهم عليه شيء واقع وهو حق، ولكنه لا يعني أنهم أبناؤه فهذا باطل.

وهذا الأصل القرآني له فائدتان: إحداهما: إقرار الحق في مكانه ، والثانية: دفع التوهم عن المخاطب حتى لا يظن أن الله تعالى قد ردّ هذا الحق مع ذلك الباطل، وهذا شبيه بقوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[1]، فبين سبحانه أن ما قالوه هو في نفسه حق ، ولكنهم لم يقولوه وهم يؤمنون به وإنما قالوه على سبيل النفاق، فهم كاذبون فيما قصدوه من هذا القول وهو ادعاء الإيمان به ليصدقهم النبي ﷺ وصحبه، فيعاملوهم معاملة أهل الإيمان .

*** ومن أصول الحوار القرآني مع المخالفين أن يجادلهم محتجاً عليهم بما يقرونه وإن كان باطلاً في نفسه** ، كما في قوله تعالى رداً على من زعم أن الملائكة

(١) سورة المنافقون: الآية ١ .

بنـات الله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1]، أي أنتـم تزعمـون أن الملائكة بنات ، مع أنكم تفضلون أن يكون أبناؤكم ذكوراً وليس ذلـك بأيديكم، أيعقل لو كان قولكم حقاً أن يجعل لكم البنين ولنفسـه البنات فيختـار لكـم خير الأولاد دون نفسـه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ ثم بين سـوء قولهم واعتقادهم فقال سـبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي رضوا أن يجعلوا لله أسـوأ الاختيارين وهم يسـتاؤون مما اختاروا لله غاية الاسـتياء حتى إن أحدهم ليسـوَدُّ وجهه لو بُشر بـه ويشـتد غيظه فيحرق جوفـه، فكأنه يقول لهم: كيف تزعمون لله ما تأبونه أنتم لأنفسـكم غاية الإباء؟ أفأنتم أحق من الله تعالى بما هو خير وأحسـن ؟! وهذا مع ما فيه من الإفحام بالحجة فيه زجر عن هذا الفسـاد بتحريك الشـعور الرادع عن ارتكاب الفساد وتحريك الإحساس بالخزي في ارتكابه .

*** ومـن أصـول الحوار القرآني مـع المخالفين أن يقررهـم بالحق على وجه لا يستطيعون مخالفته ، أو يقررهم بأمر يستلزم الإقرار بالحق** ، كما جاء في سورة الواقعـة : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾[2] أي فهلا تصدقون ، وهم حسـب أقوالهم مصدقون ، ولكن إنكارهم للبعث بعد الموت يجعلهم كالمكذبين للخلق الأول كما في تفسـير أبي السـعود (٨/ ١٩٦) إذ لا ريب أن مَنْ قدر على الخلق الأول قدر على الإعادة بلا ريب – بل الإعادة في عادة الناس أهون – وقد تقدم

---

(١) سورة الزخرف: ١٦-١٧ .

(٢) سورة الواقعة: الآية ٥٧ .

قبل آيات قليلة قولهم : ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1]، ثم جاء بعد ذلك بتقريرهم بتفصيل خلقهم بعض الشيء : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[2]، ثم أتبعه بتقريرهم عن أسباب حياتهم ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾[3] ؟ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾[4] ؟ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾[5] ؟ وكل هذه الأسئلة لا بد لهم من الإقرار بأن ما ذكر فيه كله صنع الله لا يمكنهم أن يدعوه لأنفسهم ولا لأحد غير الله سبحانه ، وكل مخلوق منها شاهد أنّ مَن قدر على خلقه قادر على إعادة الخلق كلهم فهو على كل شيء قدير . وفي أسلوب السؤال ما يحث على الإقرار بأن الله قادر على بعث الخلق يوم القيامة إقراراً عملياً ينشأ عنه الإيمان برسول الله ﷺ وبكتابه وبكل ما جاءهم به .

*** ومن أصول الحوار القرآني مع المخالفين أن يلجئهم إلى الإقرار بأحد أمرين كل منهما يدينهم ويثبت عليهم ارتكاب الباطل عمداً** كما جاء في سورة البقرة : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٤٧، ٤٨.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٥٨، ٥٩.

(٣) سورة الواقعة: الآيتان ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة الواقعة: الآيتان ٦٨، ٦٩.

(٥) سورة الواقعة: الآيتان ٧١، ٧٢.

عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] ؟ واتخاذ العهد عند الله لابد له من إثبات وهو ليس عندهم وهذا دليل كذبهم على الله ، ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا لابد من الإقرار به أو السكوت أمامه لأن العجز عن إثبات العهد يثبت الكذب منهم على الله تعالى، وذلك في النتيجة سَوْقٌ إلى الإقرار به، واستيجابهم عقوبته في حصيلة الأمر .

وهذا يسمى عند علماء الأصول السَّبْر والتَّقسيم، ويسميه علماء البلاغة التَّقسيم، وقد كان علماء المنطق يسوقونه بطريقتهم على الوجه التالي : « هذا الأمر إما أن يكون لديكم به عهد أولا يكون، فإن كان لكم فلن يخلفه الله ولكن عليكم أن تثبتوه، وإلا فأنتم كاذبون تستحقون عقوبة من يكذب على الله ». ولكن القرآن جاء به في أسلوب أوضح وأبعد عن تشويش التقسيمات في المقدمات والنتائج ، وجاء به القرآن على الطريقة الفطرية المبسطة، وترك للعقول الفطرية أن تستخرج النتائج الواضحة دون أن يطيل بذكرها، فكان الكلام أظهرَ حُجَّةً، وأظهرَ معنى، وأوجزَ أسلوباً .

ومن أعظم الأمثلة قوة ووضوحاً وإيجازاً في مثل ما تقدم قول الله تبارك وتعالى في سورة الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[2]، وفي تفسير أبي السعود ٨/ ١٥١ : والقسمة ههنا في اللفظ ثنائية، وهي في الحقيقة ثلاثية ذكر منها الاحتمالان الباطلان ليناسب أن يكون السؤال على جهة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٠ .

(٢) سورة الطور: الآية ٣٥ .

الإنـكار والتوبيخ ؛ لأن القـول بأحد الوجهين المذكورين هـو كقول من ينكر أن الواحـد نصف الاثنين أو ينكر أن الإناء الكبير لا يدخل في الصغير ، وترك الاحتـمال الثالث الـذي يوجبه العقل الفطـري والعقل العلمـي المتعمق وهو أن الله الأزلي هـو الذي خلقهم فينبغي أن يوحدوه ويشـكروه ويخشـوا عقابه. ولو سيق الكلام بدون الإنكار والتوبيخ لكان على هذا الوجه : هل خلقوا من غير خالق ؟ أم خلقوا أنفسهم ؟ أم خلقهم الله الخالق الأزلي ؟

فالإنسـان يحس بأنه مصنـوع، صنعه غيره، ولا يمكـن لعاقل أن يزعم أنه صنع نفسـه لأنه كان قبل أن يُصْنَع عدماً ، والعدم لا يمكن في العقل أن يَصنع شـيئاً ، ولما كان العدم لا يمكن أن يصنع شـيئاً كما تقول بداهة العقول فـلا يمكـن أن يكونـوا قـد ﴿ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ وإذن فلم يبـق إلا الجواب الثالـث الحـق وهو أن يكـون الـذي صنعهم هـو الله الأزلي الـذي لا ابتداء لوجـوده، وإذا لم يكـن لوجوده ابتداء فالسـؤال عن بدايتـه وعن صانع هذه البداية مناقض لكونه أزلياً بلا ابتداء .

وهـذا الـكلام الذي شرحت به الآيـة لو قارن القارئ المتدبـر المتفكر بينه وبـين الآيـة أو بينهـا وبين كل شرح - حسـب مـا اطلعت عليه - لـرأى جميع الـشروح من بـاب شرح الشيء بما هو أغمض منه ؛ فالآيـة وحدها ناطقة بهذه الـشروح وأكثـر ، وهي الأوضح وهـي الأوجز وهي الأقـوى في إقناع طالب الحق وفي إفحام المعاند ، وإنما تساق الشروح للتذكير بما في الآية من المعاني التي لم تذكر بألفاظها وخبأها الإيجاز القرآني .

*** ومن أصول الحوار القرآني مع المخالفين ما يسمى الإنصاف أو الأسلوب المنصف - كما في اصطلاح علماء البلاغة - وهو أن يضع المجادِلُ المحِقُّ نفسَه مع مُخالِفِهِ المُبْطِلِ في مقام واحد من إمكان الخطأ والصواب مع ثقته بأنه المحق، وذلك لكي يبعد عن نفسه صورةَ العناد ويصوّرَ لخصمه أنه يمكن أن يتراجع عن موقفه لو وجد أن الحق مع خصمه، وإن كان موقناً كلَّ اليقين بالحق الذي هو لديه**، ويمثلون له بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، وما قاله العلماء في هذا حق، ولكن ينبغي أن يلاحظ أن استعمال القرآن لهذا الأصل من أصول الحوار فيه تميُّزٌ كبيرٌ يجعل الفرق بينه وبين استعمال الناس له في محاوراتهم كما بين الحق في مطاوي القلوب والمقاصد؛ وبين الحق المعلن في رابعة النهار، وذلك أنك تنظر في هذه الآية: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فتجد أنه قد تقدمها ما يدل على أن الحق في جانب النبي ﷺ حين قالها، وتبعها من بعدها مثل ذلك من دلائل الحق مما يوجب على الخصم - إذا أنصف - أن يقر بأنه في ضلال مبين، وأن الحق في جانب النبي ﷺ، فيكون الإيمان به واتباعه مما يوجبه العقل والإنصاف:

فقد جاء قبلها ما يبين أنه لا صنع لأحد في الكون إلا الله، لا في الخلق، ولا في التدبير، ولا في الإنعام، ولا في شيء، وجاءت قصصٌ قبل ذلك تؤكد هذا المعنى إلى أن قال سبحانه قبلها مباشرة:

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٤.

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[1]، وقوله سبحانه في أول هذا الكلام : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم ... ﴾ هو من قبيل البرهان لأن معناه لو كان لهم شرك - كما تزعمون - لأجابوكم ، وإلا فليس لهم شيء في الأرض ولا في السماء . ثم بعد تقديم هذا البرهان المتعدد الجوانب جاء ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ .

ثم جاء - بعد هذه الآية والآيات بعدها التي تقاربها في القصد - ﴿ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2]، وقوله سبحانه هنا : ﴿ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ ﴾ هو كذلك من قَبيل البرهان ؛ لأن معناه أن هذه الآلهة المدَّعاة إذا رؤيت تبين من رؤيتها عجزُها، وأنها لا تملك شيئاً، فما كان منها جامداً كان جمودُه برهانَ بُعدِهِ عن الآلهة وعَظَمتها ، وما كان منها بشراً نبياً فَبَشَرِيَّتُهُ هي شاهدُ بُعده عن عَظَمة الصفات الإلهية .

وإذا كان قوله تعالى ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

---

(١) سورة سبأ: الآيتان ٢٢، ٢٣ .

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٧ .

محفوفاً من قبله ومن بعده ببراهين بطلان دعوى الإلهية لغيره سبحانه ، أفاد – مع ما فيه ظهور معنى الإنصاف للخصم – عدم إمكان التنازل عما جاء من الحق قبله وبعده كأنه قيل: إن ما تقولونه باطل لا يحتمل أن يكون حقاً بوجه من الوجوه ، فنحن على الحق وأنتم على الباطل. لكن لا يقوله دعوى وإنما تنطق به البراهين.

وكذلك لو تأمل القارئ المتدبر قول الله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[1]، كما يأتي بيانه إن شاء الله في نماذج الحوار القرآني مع المخالفين ، فقد أحيطت هذه العبارة من بين يديها ومن خلفها ببراهين التوحيد ، حتى ليمكن أن تسمى سورة التوحيد لو كانت أسماء السور ليست توقيفية ، ويحسن بيان شيء من معناها الآن قبل التفصيل الآتي بضرب شيء من الأمثال وذلك كما لو جاء إليك إنسان فقال لك : إن هذا البيت الذي تسكنه هو ملكي، فقلت له: (إن كان لك، ولك عليه دليل أعطيتك إياه)، فهذا يظهر أن إعطاءه البيت ممكن لا مانع لديك منه، أما إذا جئته بالبراهين والشهود ووثيقة تسجيل الأملاك لدى الجهة الرسمية المختصة ثم قلت له: (إن كان لك أعطيتك إيّاه) كان كلامك هذا إنصافاً في ظاهره وتحدياً وإباءً في مضمونه ، فهذا يشبه في سياقه وفي ألفاظه قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ .

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٨١ .

* ويظهر إنصاف الخصوم في حوار القرآن مع المخالفين في صورة أخرى تستحث الخصم على الإنصاف والرجوع إلى الحق وذلك **في ذكر مواقفه وأقواله وأخطائه بصورة دقيقة خالية من شوائب المبالغة وذكر ما يترتب على قول الخصم دون نسبته إليه**، ويظهر أكثر ما يظهر في حواره مع المعاندين كما جاء في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[1].

أراد سبحانه أن يحاورهم في هذه الكلمة: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ليظهر ما فيها من عناد للحق، فذكرها مجردة عند نسبتها إليهم، ولم يضف إليها ما يترتب عليها، ولكنه ذكر ما يكشف عن سوء قصدهم بها وهو أنهم قالوها جواباً لمّا قال لهم: ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فيكون قصدهم نؤمن بما أنزل علينا دون ما أنزل على غيرنا، فذكره سبحانه غير منسوب إليهم فقال: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ وهذا القصد منهم عناد ظاهر، ثم ذكر أنهم يكفرون بغيره مما أنزل على غيرهم ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الحق الكامل، وهذا يزيد عنادهم ظهوراً، ثم ذكر أن هذا الحق جاء ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ وذلك يقتضي أن يؤمنوا به فكفرهم عناد بعد عناد وإصرار بعد إصرار، وسمى ما أنزل عليهم بقوله ﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ حتى لا يظن ذو خيال جامح أنه مصدق لشيء ضاع من كتابهم، أي يكذبون شيئاً لا شبهة لهم في ثبوته، وكل هذه الأمور لم ينسب إليهم شيئاً منها مع أنها ثابتة عليهم بمضمون أقوالهم وأحوالهم، ثم كذّبهم في دعوى الإيمان

(١) سورة البقرة: الآية ٩١.

استناداً إلى قتلهم الأنبياء وهو ينافي الإيمان بما أنزل عليهم ، واستناداً إلى اتخاذهم العجل إلهاً بعد ما جاءهم موسى بالبينات من الحجج الواضحة على ألا عبادة لغير الله ، وكلا الأمرين دل فعلهم فيه على كذب ادعائهم ، ولما كان قوله سبحانه ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ خلافاً لصورة الفعل فهم لم يشهدوا هذا القتل، وكان بإمكانهم أن يقولوا لم نفعل ذلك إنما فعله آباؤنا، أتبع ذلك بقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ليكشف حقيقة النسبة، وأنه نسبه إليهم لرضاهم به وسيرهم سيرة آبائهم في مخالفة ما أنزل عليهم .

وفي كل ما تقدّم يجد القارئ الإنصاف الكامل لهؤلاء الخصوم ، وهذا الأمر له وجهان: وجه تأصيلي فهو من الأصول التي اعتمدها القرآن في حواره مع المخالفين، وهو من وجه آخر أسلوب من الأساليب التي تمس نفس المحاور ووجدانه وبقايا إنسانيته ليحاور بإنصاف فيسلم للحق ولا يعانده ، وليس المراد مما تقدّم أن القرآن اعتمد إنصاف الخصوم في الحوار خاصة، وأنّه تساهل فيه في غير ذلك من الأمور؛ وإنما المراد أنه أظهر ذلك للخصوم إظهاراً قوياً متميزاً وأبعده عن كل الشبهات حتى لا يكون لهم مستمسَك ببعض الشبهات ليعللوا به في التهرب من الحق .

والأصول التي تقدمت في هذا الفصل ليست هي كل أصول الحوار القرآني مع المخالفين وإنما هي أمثلة منه ، لا تكوّن نتيجة كاملة وإنما تمثل جانباً لا ينبغي أن يترك استكمالها في دراسة استقصائية، عسى أن ييسرها الله تعالى، والله ولي التوفيق بفضله .

* * *

الفصل الثاني

أساليب الحوار القرآني

مع المخالفين

أساليب الحوار
مع المخالفين في القرآن

هذا الفصل يختلف عن سابقه فذاك يتناول جوانب منهج الحوار العقلي العلمي مع المخالفين، وهذا يتناول أساليب الخطاب من ترفق وشدة، واستثارة للشعور تدفع إلى اتباع الحق، ومن وعيد وتهديد على العناد وتخويف من نتائجه، ومن ترغيب في الحق ونتائجه، وغير ذلك من الأساليب التي يساق فيها الحوار لدفع المخالف إلى الموقف الأسلم، والمقصود في هذا الفصل بيان الأسلوب في موقعه وبيان أثره والغاية منه في هذا الموقع. وهذا الفصل كسابقه من حيث الاقتصار على نماذج دون الاستقصاء الذي يراد به حصر النتائج وإحصاء الأصول وعرض كل الأساليب التي اعتمدت في القرآن إذ ليس ذلك من مقاصد البحوث المختصرة كهذا البحث، وإنما يراد بها لفت النظر إلى الموضوع وعرض جوانب منه تنبئ عما بعدها ولا تحصره.

وهذه الأساليب استندت عليها حوارات القرآن كثيراً، وهي ذات أهمية كبرى، بها يكمل دور تأثيرات الحوار على النفس، فهي تتعاضد مع الأدلة - بعد مرورها على الفكر - إلى ساحة الشعور فتحرك الرغائب وتستحث الميول لتوجهها إلى الحق والخير والهدى.

أسلوب الترفق بالمخاطبين:

ومن لطائف هذه الأساليب أن الحوار القرآني يخاطب برفقها أشد الناس عناداً، فنرى القرآن في حوار بني إسرائيل - وهم المعروفون بشدة العناد - يبدأ في سورة البقرة - ضمن حوار طويل - بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[1]، يبدأ بتذكيرهم نعمته ويدعوهم إلى الوفاء بعهده ويختم ذلك بالتحذير من عذابه - وليس بالتهديد- كأنه يستثير ما تبقى في نفوسهم من دواعي الخير لعلهم يستجيبون! وكان هذا الختام مقدمة لتذكير طويل بالنعم الكثيرة والعفو عن الإساءات الخطيرة، وربما تحول الحال فجاء هذا التذكير أولاً بالعتاب الشديد: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[2]، ثم يشتد عليهم أكثر حتى يقول لهم: ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[3]، ولكن هذا الوعيد الشديد والتهديد المريع لم يأت إلا بعدما أظهر من أحوالهم المصرة على الباطل ما يستوجبه ويستدعيه كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾[4]، وكقوله تعالى

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٤ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٥ .

(٤) سورة البقرة: الآية ٧٤ .

بعد هذا بقليل : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، فالزجر والتهديد والتوبيخ والوعيد بعد البيان والترفق ربما حرك القلوب .

وتتناوب أنواع الترفق بين موضع وموضع وكلها يستثير في المخاطبين منزعاً من منازع الخير التي فطر الله الإنسان عليها ولو كان مشركاً لم يبق عنده من تعاليم الأنبياء إلا موروثات من العادات التي لا تستند إلى كتاب يقرأ أو عالم يروي ما له مستند كما كانت قريش، فنرى الحوار القرآني يدعوهم إلى الهدى مستحثاً إنسانيتهم بقوله لكل فرد منهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[2]، وهو في كل كلمة يذكرهم بواجب الشكر لمن أحسن إليهم أعظم الإحسان، والعربي يلهب شعورَه التذكيرُ بالإحسان وشكره، قد ورث في مجرى دمه أن الذي لا يقدر المعروف لئيم، واللؤم أجمع أوصاف الدناءة عنده . ثم يكشف القرآن لقارئه عن عدم استجابتهم بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾[3]، ثم يبين العواقب عواقب الاستجابة والإعراض فيقول : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[4].

بل نرى هذا الترفق يظهر في بعض الحوارات بصورة تدعو كل سامع

(١) سورة البقرة: الآية ٧٥ .
(٢) سورة الانفطار: الآيات ٦-٨ .
(٣) سورة الانفطار: الآية ٩ .
(٤) سورة الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤ .

إلى الحسرة عل العباد المعذبين - رغم ما تقدم ذكره عنهم من شدة عنادهم وإيذائهم للرسل كما جاء في سورة يس: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[1]، ثم يقول سبحانه وتعالى في عقوبتهم: ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾[2]، ويأتي بعد هذا مباشرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾[3]. وهذا حثّ لمن بعدهم من العباد الذين يسمعون هذه الآيات وما فيها من الأخبار.

بل نرى الحوار القرآني في بعض المواضع كأنه يستدر عطفهم على أنفسهم وهو يحذرهم من المعاصي كما جاء في سورة الأعراف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾[4]، أو يقول لهم كما جاء في سورة يس: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾[5]، أو يقول كما في سورة الكهف: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾[6].

---

(١) سورة يس: الآية ١٨ .

(٢) سورة يس: الآية ٢٩ .

(٣) سورة يس: الآيتان ٣٠، ٣١ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٧ .

(٥) سورة يس: الآيتان ٦٠، ٦١ .

(٦) سورة الكهف: الآية ٥٠ .

ويتعاظم أسلوب الترفق حين يأتي في خطاب المؤمنين العصاة لأنهم أقرب من المعاندين وإن كانوا من المسرفين على أنفسهم، ويفتح لهم طرق العودة إلى الحق والصواب ويستميلهم إلى الرجوع والتوبة بوعود الغفران العظيم الواسع يغريهم بذلك كل الإغراء كما جاء في سورة الزمر: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1] وهذا التحذير يحمل في طياته مع الرفق التخويف من سوء العاقبة، ويشتد التحذير إلى أن يقول لمن يأبى هذا الإحسان الكبير: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2]، لكن يختمه بالترغيب في مصير الأتقياء: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

والحديث عن أسلوب الترفق في الحوار القرآني يطول لو أراد الإنسان استقصاءه، وإنما هذا الذي تقدم أمثلة تلفت النظر وتدعو إلى التأمل والبحث، وتشعر قارئ القرآن بعناية الله ورحمته بهذا الإنسان، الرحمة التي أوجز القرآن

---

(١) سورة الزمر: الآيات ٥٣-٥٥.

(٢) سورة الزمر: الآيتان ٥٩، ٦٠.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦١.

فيها هدف اختيار الرسول ﷺ ورسالته فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، بل هذا الترفق وصية ربانية من الله لأنبيائه مع أطغى الطغاة كما جاء في سورة طه قوله سبحانه وتعالى لموسى وهارون عليهما السلام وهو يرسلهما إلى فرعون : ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾[2].

أسلوب الشدة في خطاب المخالفين:

هل يعني هذا أن الشدة في الحوار لا تجدي، وأن الإنكار والتوبيخ والزجر والوعيد والتهديد أمور مستبعدة في الحوار القرآني ؟

ليس الأمر كذلك، فلا ريب أن الذي لا يستجيب للترفق والإحسان ويأبى أن يلتفت إلى الحجة والبرهان يحتاج بعد ذلك إلى ما يكسر شراسة غروره، ويشهر بما طوى في مغالطاته من شروره، فإذا لم يرجع إلى الحق بدافع الإنصاف فلعله يرجع إليه خوف التشهير والانكشاف فيكون عبرة للمعتبرين، وذلك في الحوار من أهم الثمار .

فهذا سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاور مدعي الربوبية فيفاجئه هذا المدعي بالمغالطة والتزوير فيجابهه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما يبهته ويكشفه لمن حوله كما جاء في سورة البقرة : ﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧ .

(٢) سورة طه: الآية ٤٤ .

وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾[1].

هل آمن أحد ممن حضر ؟ الله أعلم ، ولكن هذه القصة بلّغها من حضر لمن لم يحضر، وقصها إبراهيم عليه السلام على من قصها عليهم، وذكرها الله تعالى فيما أنزل، ولا ريب أنه كان لها أثر كبير في العقول والقلوب منذ بهت ذلك الطاغية إلى اليوم ثم إلى يوم الدِّين .

والملاحظ هنا أن التخجيل الذي جاء في الآية إنما هو بطريق إقامة الحجة التامة الوضوح فقط دون أن يكون معه زجر ووعيد أو غير ذلك من أساليب الحوار الشديد، والشدة هنا إنما هي في السياق الذي كشفه وعرَّى تزييفه أمام الحاضرين، فبهت ولم يملك جواباً ، والاقتصار على هذا المقدار من الشدة قد يراد به منعه من التهرب ومن مشاغلة الحاضرين عن هزيمته بالرد على التوبيخ الذي وجهه من خاطبه إليه .

فإذا كان الخصوم المحاورون قد لجوا في التزوير وقول الأباطيل المكشوفة ولم يراعوا حرمة الحوار جاء الخطاب القرآني لهم بأسلوب توبيخي دون محاجة، إنما هو نقض لقولهم وشدة في ردعهم، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾[2] فليس ههنا إلا نقض لقولهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨ .

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٤ .

يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، وكان في بدء الجواب الزجر والتوبيخ بأشد الألفاظ : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[1].

أجابهم أولاً لا بمناقشة قولهم، وإنما بيان دوافعهم وراء هذا القول فليست هي معرفة الحق وإنما التكبر والعتو والطغيان، ثم أخبرهم بأنهم سوف يرون الملائكة ولكن لا للتعرف عليهم ولا لتكريم طالبي رؤيتهم وإنما لحرمانهم من كل وجوه الخير ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[2]، وقولهم ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ كلمة يقولونها بمعنى الاستعاذة كأنهم يقولون اللهم احجر عنا هذا الشر كما في تفسير أبي السعود رحمه الله ٦/ ٢١٢ .

وليس هذا تركاً للدليل في مجال الحوار، فالأدلة والبراهين وإيضاح الحق بها هو الأصل الذي لا تخلو منه قضية، وإذا ترك في موضع فقد أعطي حقه في مواضع كثيرة .

وربما ذكر القرآن القضية وبراهينها، ثم عقب ذلك بذكر كفر الكافرين،

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٢١، ٢٢ .

(٢) سورة الفرقان: الآيتان ٢٢، ٢٣ .

ثم جاء الوعيد والإنذار بعده مباشرة بلا حوار، اعتماداً على ما تقدّم كما في أول سورة الرعد: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[1] ثم ذكر سبحانه وتعالى ما في الأرض من آيات حتى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وذكر في الأرض آيات أخرى ختمها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[3]، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4]، أي فسؤالهم هذا عجب لما فيه من الشك أو الإنكار بعد تلك الآيات التي تدعو إلى اليقين وتستثير التفكير وتنير العقول، ولذلك لا يستحقون الجواب على سؤالهم، إنما يستحقون أن يكشف تنكرهم للحق وكفرهم به وعقابهم عليه بالأغلال والخلود في النار، ويعرض ربنا عنهم في هذا الموضع، ويجعل ظاهر الحوار مع النبي ﷺ والمقصود به أولئك الجاحدون لآيات ربهم، وفي هذا الإعراض مزيد من التوبيخ والاحتقار والاستنكار لما كان منهم.

وهذا الإعراض في الحوار عمن هو مقصود بالحوار يتكرر في القرآن كثيراً

---

(١) سورة الرعد: الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ٤.

(٤) سورة الرعد: الآية ٥.

وتتنوع صوره، ومن أكثر مواقفه دقة أن يكون بعض الحوار حديثاً عن الغائب وبعضه خطاباً للحاضر، والمراد بهما الشخص نفسه أو الجماعة نفسها، كما جاء في أول سورة النبأ، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾[1]، فبدأ بذكر تساؤلهم عن البعث تساؤل إنكار واستغراب وجحود، ثم عقبه بتهديدهم عليه تهديداً مكرراً مؤكداً بصيغة الغياب أيضاً إعراضاً عنهم وإبعاداً لهم - بسبب ذلك - عن أن يستحقوا الخطاب في حالتهم هذه، فلما ذكر الآيات الدالة على حكمته في خلقه وقدرته على البعث وعلى كل شيء ذكرها بصيغة الخطاب: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، وهذا خطابٌ لهم إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ۝١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ۝١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾[2]، وانتهى عرض الآيات الدالة على عظمة قدرته وحكمته سبحانه وتعالى ودلالة ذلك على مجيء يوم الفصل، فانتقل إلى التخويف بأسلوب الخطاب لأنه أوقع أثراً في النفوس، ثم عاد ثانية إلى الغياب فكان التخويف بجهنم لهم ولكل طاغ يأبى التسليم بالحق بعد البرهان: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ۝٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا

(١) سورة النبأ: الآيات ١-٥.

(٢) سورة النبأ: الآيات ٦-١٨.

﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴾[1]، ثم عاد إلى الخطاب للطاغين كلهم من قوم النبي ﷺ وغيرهم حين صار في الخطاب مزيد من التنكيل والتوبيخ يضيف إلى عذاب الأجسام عذاب النفوس فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[2]، ثم أضاف لوناً آخر من التعذيب النفسي فذكر سبحانه وتعالى نعيم أهل التقوى الذين آمنوا بالله واليوم الآخر: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾[3] إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾[4].

وفيه أيضاً **ترغيب لهم** في الإيمان والانقياد للحق فلعلهم يؤمنون إذا سمعوا بجزاء الله تعالى للمؤمنين المتقين خيراً ونعيماً، فللترغيب بعد الترهيب أثر في النفوس يستثير بواقي ما في النفوس من دواعي الخير التي فطر عليها الإنسان[5].

وأسلوب **الترغيب** يتكرر في القرآن وحواراته كثيراً، كما يتكرر كثيراً اقترانه **بالترهيب** يسوقان المخاطب إلى الحق والخير والتقوى، هذا يكفه عن الباطل بذكر عواقبه، وهذا يدعوه إلى الحق بذكر منافعه كقوله سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة النبأ: الآيات ٢١-٢٩.

(٢) سورة النبأ: الآية ٣٠.

(٣) سورة النبأ: الآية ٣١.

(٤) سورة النبأ: الآية ٣٦.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود ٩/ ٨٤، وما بعدها.

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1]، ويقارنهما **برهان الحق الكاشف** عن حقيقته ويكون من ذلك ما يشاء الله في كل مناسبة.

ومن أبرز المواقع التي ظهر فيها اجتماع الثلاثة حوار المؤمن من آل فرعون في سورة غافر، وما يرويه لنا ربنا من الحوارات عن أهل الحق ورجاله هو مرضي عنده فهو منسوب إليه بملاحظة هذا المعنى، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[2]، وهذا حوار بالحجة والبرهان حول قول فرعون: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾[3]، يبين لهم هذا الرجل المؤمن خطأ ما يريد فرعون من جهة أن موسى يقول الحق، ومن جهة أنه يقوله مقروناً بالبينات من ربهم وهي البراهين الواضحة، يعني أن هذا القتل منكر لا يقرّ به عاقل، وإذا كان قوله حقاً معروفاً بالبينات فلا يضر أحداً لو كان كاذباً فكذبه يضره ولا يضر غيره ما دام قوله حقاً جاء عليه بالبينات. ثم أضاف مؤمن آل فرعون إلى هذا البرهان أسلوب الترهيب والترغيب: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٣) سورة غافر: الآية ٢٦.

وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]، ثم يعود بعد ذلك إلى بيان الخير والشر فيما يريد لهم وفيما يريدون له : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[2]، إلى أن يختم حواره بقوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[3].

ويجد قارئ هذا الحوار في عباراته كلها – من أدلة وترغيب وترهيب – لهجة الناصح الشفوق الذي يستعطف من يكلمهم، ويستثير شفقتهم على أنفسهم، ويلح عليهم إلحاح المتألم لحالهم وما يجرونه من الشر على أنفسهم، وهذا يذكر بما تقدم من أسلوب الترفق في الحوار القرآني مع المخالفين ، كما يذكر بما تقدم في أصول الحوار القرآني مع المخالفين مما يسميه العلماء القول المنصف ، وهو من جملة الأساليب التي تستميل المخاطب إلى الحق وتتألف قلبه عليه كالترغيب وكالترفق بأنواعه التي تقدم التنبيه إلى بعضها .

وهذا الأسلوب جدير بالاهتمام لاسيما وأن وروده في القرآن الكريم حق كله والمتكلم به هو رب العالمين، فورود هذا الأسلوب في كتابه يعني توصيته القائمين بالبلاغ عنه به وذلك يعطي أكبر العبرة لمن يريد أن يحاور المخالفين للحق دون أن ينفرهم من الحق بأسلوب حواره .

---

(١) سورة غافر: الآيات ٣٨-٤٠ .

(٢) سورة غافر: الآية ٤١ .

(٣) سورة غافر: الآية ٤٤ .

وقد قال الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[1] أي لذلك الولد المفترض جدلًا ، والمراد به تخفيف ما في نفوسهم من العناد ، ليتبينوا أنه ﷺ لا يخالفهم كرهاً لهم وبغضاً، وإنما يخالفهم كرهاً للباطل وبغضاً للضلال، وتجنباً لما فيه من التزوير والبهتان وادعاء وقوع ما يستحيل وقوعه ، ولأجل ألا يتوهم أحد أنه ﷺ يمكن أن يعبد ما يعبدون من دون الله قدم الله سبحانه وتعالى على هذه الآية براهين التوحيد وثمرات الشرك وسيئاته وعواقبه ، وهكذا[2] ينبغي أن يفعل من يستخدم هذا الأسلوب في حوار المخالفين كما يتضح من شرح هذه الآية في نماذج الحوار القرآني إن شاء الله تعالى . وذلك لأن الاعتماد على هذا الأسلوب دون إحاطة القضية التي يدور حولها الحوار بالبراهين يوهم المخاطب أن المتكلم يشك في القضية نفسها.

وكذلك أمر الله تعالى نبيه سيدنا محمداً ﷺ أن يقول لمشركي قومه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

وهذه الآية مسبوقة أيضاً بما يدفع توهم الشك في معرفة أهل الهدى وأهل الضلال من الفريقين حيث قال سبحانه – وبأسلوب التحدي وهو من أعظم

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٨١ .

(٢) أبو السعود ٧ / ٥٦ .

(٣) سورة سبأ: الآيتان ٢٤، ٢٥ .

الأساليب الكاشفة لضلال الخصم وخطئه -: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[1].

ويقرب من هذا الأسلوب في إبعاد الخصم عن النفور والعناد عند الحوار أن يسند صاحب القول الحق ما ينكره على محاوريه من الباطل إلى نفسه خشية أن يصارحهم بنسبة الباطل إليهم فيصروا عليه كما جاء في سورة يس في كلام الرجل الآتي من أقصى المدينة: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[2]، وهذا الرجل مؤمن فيكون قصده من الإنكار الذي وجهه إلى نفسه أنه يدعوهم بهذه الحجج إلى أن يوجهوا هذا الإنكار إلى أنفسهم كأنه يقول لهم: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون، أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذونكم إنكم إذن لفي ضلال مبين. فقاله على الوجه الذي جاء في القرآن تلطفاً بهم وإطفاء لوهج العناد الذي كان في كلامهم عندما ردوا على الرسل وتوعدوهم بالرجم والتعذيب إن لم يكفوا عن دعوة الحق، لقد سلك بهم في الحوار ألطف ما أمكنه من المسالك، ولم يدع

(١) سورة سبأ: الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة يس: الآيات: ٢٢-٢٤.

للقوم سبباً يتذرعون به في رفضهم دعوة الحق، ولكن القوم كانوا قد انجرفوا في مهاوي الضلال والعناد والطغيان فاستحقوا سرعة العقاب: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾[1].

*** ومن الأساليب القرآنية في الحوار مع المخالفين ما يستثير في النفس التأثر بالعبرة من قصص الماضين، فيختار منها ما يشبه حال الذين يحاورهم فيعرضه عليهم ثم يحاورهم** كما جاء في سورة الأحقاف: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ إنذار شديد لمن كان مثلهم كمشركي قريش المخاطبين بالآيات المذكورة، وهذه العبارة هي مفتاح للحوار معهم حول قضية التوحيد والشرك ورفض دعوة الأنبياء فيقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ إلى أن يقول ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3]، ويختم ذلك سبحانه بقوله: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة يس: الآية ٢٩.

(٢) سورة الأحقاف: الآيات ٢١-٢٥.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٢٦.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٢٨.

فنتيجة القصة تأتي في هذا الحوار المباشر: إن الآلهة التي اتخذوها بالباطل لتقربهم إلى الله ولتشفع لهم عنده لم تنفعهم شيئاً، ولم تغن عنهم من العذاب شيئاً، وقريش تعرف هذه القصة لأنها جزء من تاريخ جزيرة العرب وشعوبها، فعرضها عليهم، ومحاورتهم في قضية التوحيد والشرك بعدها ذو تأثير نفسي وعقلي كبير لا ريب فيه، وهي محاورة في غاية الإحكام والحكمة.

هذا والأساليب المؤثرة في سوق الحوارات القرآنية مع المخالفين كثيرة ومنوعة، لكل منها ما يميزه وما يعمق أثر الحوار وينمي نتائجه، وما هذا الذي قدمته إلا نماذج من أساليب القرآن في حواره مع المخالفين، وهي جديرة بالتتبع والاستقصاء وتعميق الدراسة لاستخلاص الفوائد التي تعين دعاة الحق في إبلاغ دعوة القرآن إلى كل عاقل منصف محب للحق والهدى والإصلاح، والله الموفق للخير والصواب، وصلى الله على سيّدنا محمد، الذي قال له ربه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ ١٢٥ النحل[1].

***

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

الباب الثاني

نماذج من حوار القرآن

مع المخالفين

الباب الثاني

نماذج من حوار القرآن

مع المخالفين

أردت من هذا الباب أن يرى القارئ أصول وأساليب الحوار القرآني مع المخالفين في صورة واقعية عملية تبرز بها آثارها الطيبة على المخاطبين حين يحاورهم القرآن الكريم ، فتناولت هذه الصور بالتحليل كلمة كلمة وجملة جملة دون فصل بين الحديث عن أصول هذه الحوار وبين الحديث عن أساليبه، بحيث يظهر النص المعروض وحدة متكاملة تمتزج فيها الأصول والأساليب وكل العناصر التعبيرية الأخرى .

وقد قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول ، اشتمل كل منها على عدة من النماذج تتنوع فيها أصول الحوار القرآني وأساليبه :

الفصل الأول: نماذج من الحوار في قضية التوحيد .

الفصل الثاني: نماذج من الحوار في قضية البعث والجزاء أي يوم القيامة.

الفصل الثالث: نماذج من الحوار في قضايا منوعة .

وعسى أن يجعل الله في ذلك ما يمن به من صواب وخير بتوفيقه .

الفصل الأول

نماذج من حوار القرآن مع المخالفين

حول قضية: توحيد الله

الفصل الأول

نماذج من حوار القرآن مع المخالفين

حول قضية: التوحيد لله

أتعبدون ماتنحتون:

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

تفسير البغوي ١٠٩١ - تفسير أبو السعود ٧ / ١٩٧

في هذه الآيات حواران، أولهما: تنبيه إلى نكرة عملهم في ميزان الفطرة السوية والقلب السليم من شوائب الأوهام وعوج النظر وظلام التفكير، يبدأ هذا التنبيه بقوله: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ وهي عبارة تنبئ عن استنكار العبادة لما لا يستحق العبادة ولا يعقل أن يعبد لما هو ظاهر من بعده عن أن يفعل شيئاً يدل على ألوهيته، وإنما فسرت بهذا لأنه يعلم ما يعبدون وهم يعلمونه، ثم يقول: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾، والإفك أسوأ

(١) سورة الصافات: الآيات ٨٣-٩٦ .

الكـذب ، وإنـما يكـون أسـوأه لأنه تعمـد فيه صاحبـه قلـب الحقيقة وصرف النـاس عنهـا حسـب ما تـدل مادة الإفـك إذ تأتي بمعنـى القلـب كقوله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾[1]، وكقولـه تعـالى حكايـة عـن الكافريـن ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾[2]، وتـأتي بمعنـى الكذب السـيئ كما في هـذه الآية ، فهـو يقول لهم على سـبيل الإنكار والتشـنيع أتريدون إفكاً لتتخذوه آلهـة ، فهم حين اتخذوها لم يبحثوا عن الإله الحق ليتخذوه إلهاً بل اختلقوا كذباً جعلوه إلهاً ، ونظم الآية يعطي معاني وفوائد أكثر من ذلك لو تأمله المتفهم :

وأصـل نظم الجملـة في النحو أن « إفكاً » مفعول ثـان لقوله « تريدون »، و« آلهـة » مفعولـه الأول ، فتكون الجملة في الأصل هكـذا « أتريدون آلهة إفكاً دون الله » ؟ أي أتريـدون آلهـةً مكذوبةً تجعلونها بديـلاً عن الله تعالى ؟ فالإفك مصدر وضع مكان المفعول كقوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[3]، ويكون الإنكار منصباً على مجموع معنى الجملة.

وجاء نظم الآية على خلاف هذا الأصل الذي تقدم بيانه لأسـباب تقوي الإنكار عليهم ، فأول ذلك أن تقديم المفعول على الفعل ليباشر همزة الاستفهام الإنـكاري يـدل على أن هذا الفعـل منكر ولكن وقوعه على هذا المفعول أشـد نـكارة في حكم العقل والفطرة ، كما لو رأيت إنسـاناً يـأكل طعاماً رديئاً فتقول

---

(١) سورة النجم: الآية ٥٣ .

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٢ .

(٣) سورة يوسف: الآية ١٨ .

لـه : (أتـأكل طعاماً رديئاً) فإذا رأيته يأكل التراب قلت له (أتراباً تأكل) تعني بذلـك أن التراب لا يصلح لـلأكل أصلاً فلذلك قدمتـه لتجعل الكلام أقوى إنـكاراً . والحجـارة أبعد شيء عن معنى الألوهية فلا يجعلها آلهة إلا من اختلق دعـوى لا تعقل أصـلاً ، ولا يقال إنها عندهم ليسـت آلهـة ولكنها رموز لآلهة لا يقـال ذلك لأنهم كانوا يعاملونها على أنها آلهة ويسـمونها آلهة ، وحين رأوها مكـسرة قالـوا: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾[1]، وحين قال لهم سـيدنا إبراهيم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ لم يقولـوا له إنها ليسـت آلهـة إنما هي رموز لآلهة ، وأنت تحاورنا بطريقة خاطئة .

ثم إن الآية – عدا تقديمها لفظ الإفك ليباشر همزة الاسـتفهام الإنكاري – وضعـت هـذا اللفـظ الذي هـو مصدر – موضـع المفعول ؛ لأنـه من حيث المعنـى صفـة للآلهة فهي مأفـوك فيها أي مكـذوب فيها ، والمـراد في ذلك أنها لعظـم مـا وقع فيها من الإفك صارت مجسـدة من الإفك، فصـار القوم كأنهم اتخذوا الإفك نفسه آلهة ، وهو منكر في غاية النكارة، وجاء قوله سبحانه وتعالى ﴿ دُونَ ٱللَّهِ ﴾ ليـبرز سـوء فعلهـم أكثر لأن المعنـى يكون أنهم تركـوا الله تعالى وهـو مسـتحق الألوهيـة واتخذوا مـالا يعقل أن يتخـذ إلـهاً وهـو الحجر ، ثم كان قوله تعالى ﴿ دُونَ ٱللَّهِ ﴾ بياناً لكون عبادة المشرك لله لغواً لأن أهم أسـاس للعبادة هو توحيده، ثم جاء قوله سبحانه وتعالى ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بدل أن يقال مثلاً « تتخـذون » لأن الإرادة فعـل يكون عـن تفكير وتدبر وعزيمـة، وهذا يجعل

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥٩ .

عملهـم أشـد نكارة فكأنـه يقول لهم : إنكـم تتعمدون فعل هـذا الضلال عن قصد وتصميم ، فالعبارة مبنية بناءً ينضح من كل جهاته بشدة الإنكار على هذا الفعـل القبيح، والمراد بذلك كله أن تتفتح عقولهم لشـناعة هذا الخطأ وتدركه إدراكاً قوياً عسى أن تتراجع عن ارتكابه .

وعقّـب ذلـك كله بقوله ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهو تنبيه شـديد على المفارقـة الواسـعة بـين الله – وهو الخالق المدبر شـؤون العالمـين – وبين أصنام الإفـك التي لا إرادة لها ولا قـدرة كما تظهر لكل من رآها ، ولذلك بدأت هذه الجملـة بالفـاء الدالة على ترتيب مـا بعدها على ما قبلها ، كأنـه قال فإن اتخذتم هـذه الحجارة العاجزة آلهة فـما قولكم في من هو رب العالمين ، أهو مثلها – مع تدبـيره شـؤون العالمين وهذا محـال – فاتخذتموها آلهة معه ؟ أم هـو ذو العظمة التي يشـهد بها خلقه وتدبـيره للعالمين ومع ذلك اتخذتم هـذه الحجارة الصماء شريكة له مع عجزها هذا ؟

سؤال يظهر المفارقة الهائلة ولكن القوم كأنهم أغمضوا عيون عقولهم فلا تبصر، وأخرسـوا ألسـنتهم فلا تنطق . ولذلك وجد أبـو الأنبياء عليه الصلاة والسـلام نفسه مضطراً إلى أسـلوب أقوى يوقظ العقول والقلوب، يهزها هزاً قويـاً مزلزلاً ، يطرد الباطل وكل شـبهاته وأوهامه، ولكنه كتم ذلك ليفاجئهم بـه ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ ولحـظ من ذلك أن غـداً عيد لهم يخرجون فيه من بلدهـم، ويضعـون الطعام عند آلهتهم زعـماً منهم أنها تبارك عليـه فإذا رجعوا مـن عيدهم أكلـوه ، وقد دعوه للخروج معهم فاعتل لهـم بالمرض ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي مريض، وهو من أساليب التورية وقصد أنه سقيم البال أي شديد

الأسف مما يراه من إصرارهم على الشرك والإفك ، ﴿ فَنَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ تركوه في البلدة وانصرفوا إلى عيدهم ، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ وأصل الرواغ الميل أي ذهب إليها متخفياً ، فنظر إلى الطعام الذي وضعوه عندها فقال على سبيل السخرية وإظهار عجز هذه الآلهة المزعومة عن أن تأكل أو تتكلم بجواب لمن يخاطبها : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ فهجم عليهم هجوماً مخيفاً ليتمكن من تكسيرهم جميعاً فلا يظنوا أن بعض آلهتهم امتنعت من الضرب ، ولكي لا يتوهم من لفظ « راغ » المفيد للإخفاء أنه ضرب ضعيف كما يكون ضرب المتخفي عادة ، أتبعه بقوله: ﴿ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾، وهو يفيد قوة الضرب، سواءً قصد باليمين القوة، أو قصد اليد اليمنى ، إذ المقصود أن اليد اليمنى أقوى في الضرب ، وقد عُدِّيَ الفعلُ أولاً بواسطة إلى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ لأنه بمعنى الذهاب فكأنه قيل: « مال إلى آلهتهم »، وعُدِّيَ ثانياً بواسطة « على » لأن المراد به معنى أقبل كأنه قيل: « أقبل عليهم بالضرب »، ثم إن في « على» معنى الاستعلاء، وهو يناسب القوة والضرب باليمين ، ولتكون الجملة كلها موضحة لمعنى القوة جاء لفظ « ضرباً » – وهو مصدر – مفعولاً مطلقاً لفعل « راغ » – وهو مؤكد لفعله ومفصل له – فجعل الرواغ والضرب شيئاً واحداً كما يقال : سار فلان هرولة .

ولما سمع القوم بما فعل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسرعوا بالمجيء إليه وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ والزفيف مشي النعام إذا جد وهو أشد مشيها وأول عدوها ، وذلك يصور أثر قوة المفاجأة عليهم وصعقة الخبر المفزع المريع . وفي هذا الحين حين رؤية الآلهة المزعومة

وانكشاف الإفك بتكسيرها على يد إنسان مثلهم ألقى عليهم هذا السؤال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ وهو سؤال يجمع مضمون الحوار الذي بدأ به معهم ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، ومضمون ضرب آلهتهم باليمين حتى جعلهم جذاذاً أي فتاتاً، ومضموناً جديداً هو التصريح بتناقص عقول هؤلاء المشركين، وذلك أن المعقول في الفطرة الإنسانية والنظر السليم والبداهة الصريحة أن المخلوق يعبد خالقه الذي صنعه، فلو كان غير الله يستحق العبادة لكان ينبغي لهذه الأصنام أن تعبد الذين نحتوها، فكأنه يقول لهم: أيعقل أن يكون الصانع عابداً ومصنوعه معبوداً له؟ و الأعجب أنهم يفعلون هذا في حين أن الله هو خالقهم وخالق ما يعملونه فهو وحده الجدير بالعبادة.

إنّه حوار يقهر كل عناد ويستخرج الإقرار بالحق من خفايا العقول والقلوب، ولكن العناد لا يستسلم للحق أبداً فالأمر عند المعاند ليس قائماً على وجود خفاء أو إشكال في القضية، إنما يقوم عنده على رغائب النفس وشهواتها وأنانيتها فلذلك كانت نتيجة هذا الحوار عندهم أن: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾[1]، وهي حجة كل طاغية يعجز عن مواجهة الحق الواضح البين.

ولكي لا تنطلي الحيلة على الجهلة فيتوهموا أن آلهة الإفك انتقمت من نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن طريق إحراقه بالنار على أيدي عابديها،

(١) سورة الصافات: الآية ٩٧ .

جعل الله سبحانه وتعالى النار برداً وسلاماً عليه، فكانت نتيجة عملهم عكس ما أرادوا حين كايدوه بهذه النار، فنجاته تعني عجز آلهتهم وبطلان إفكهم وظهور الحق الذي دعاهم إليه وحاورهم فيه عليه الصلاة والسلام أي إفراد الله تعالى بالألوهية ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[1].

وهذا الحوار ذكر في موضع آخر أكثر تفصيلاً، وفيه شيء من اختلاف الألفاظ، ولكل مقام مقال .

أولو جئتكم بأهدى:

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ

(١) سورة الصافات: الآية ٩٨ .

عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

تفسير البغوي ١١٦٥ - تفسير أبي السعود ٨/ ٤٢

يدور الحوار في هذه الآيات مع المخالفين المشركين حول القضية الأولى في الدعوة لدين الإسلام، وهي قضية التوحيد - وإن دخلت معها بعض القضايا الأخرى - المساعدة على بلوغ الغاية من هذا الحوار، بل يرى الإنسان عند التأمل أن السورة كلها تمضي في هذا الاتجاه، مما يجعل اجتزاء هذا الحوار من بقية السورة صعباً، ويفرض على دارس الحوار أن يشير إلى علاقة بقية أجزاء السورة بهذا الحوار ولاسيما الأجزاء التي تتحدث عن التوحيد مباشرة.

وبداية السورة تأتي كالمقدمة لكل ما يذكر فيها فيذكرهم بأن هذا الكتاب - لكمال عظمته - جدير أن يقسم الله به وأنه كتاب مبين يخاطبهم بوضوح كامل وقد جعله الله عربياً بلسانهم ليتمكنوا من فهمه وتعقله ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[2]، ويذكرهم سبحانه وتعالى بمكانة هذا الكتاب عنده: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[3]، ثم يُطرَح عليهم سؤال استنكاري عما إذا كانوا بإسرافهم جديرين ألا يذكروا: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ﴾[4]، ويعقب

(١) سورة الزخرف: الآيات ١٥-٢٥.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٣.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٤.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٥.

ذلك بيان أنهم كالأمم الكثيرة التي سبقتهم بتكذيب الأنبياء فأهلكها الله تعالى مع أنها أشد منهم بطشاً .

بعد هذه المقدمة يتناول الأساس الحق لقضية التوحيد وأنه أساس يقرون بـه، فينبغي أن يكونوا موحدين بناءً على ذلك الأسـاس: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1]، أي الغالب في إنفاذ ما يريد ، وهو عالم بأدق التفصيلات التي يحتاجها خلق السـماء والأرض ، ثم يعرض صوراً من خلق السموات والأرض تتجلى فيها القدرة العظيمة والعزة الرفيعـة والعلـم الواسـع ويجعل ذلـك تابعاً لصفتـي العزة والعلـم ، كأنما هو - لقـوة دلالـة ما قبله عليه - جزء تابع لما قبله، وكأنـه - لقوة اقتضاء إقرارهم لـه - يجري مع كلامهم في نسـق واحد كأنه تتمة لـه : ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... ﴾ [2] إلى أن يقـول سـبحانه وتعـالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[3].

فهـذه النعـم تتطلب الشـكر وتدعو إليه مـن يتمتع بها ويسـتفيد منها، وأول الشـكر هـو تنزيـه صانعها سـبحانه وتعالى عن أن يكـون له شريك :

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٩ .

(٢) سورة الزخرف: الآيتان ٩، ١٠ .

(٣) سورة الزخرف: الآيات ١٢-١٤ .

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ والتسبيح هو التنزيه ، لاسيما أنهم يقرون بأنه هو خالق ذلك كله ، ثم يبدأ الحوار ويدور حول ما يقولون وما يعملون في شأن التوحيد.

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾ ، يبدأ الحوار بذكر معنى من معاني الشرك التي جاءت في معتقداتهم : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ ﴾ وقبل التعليق على هذه الكلمة يلاحظ أن الصياغة القرآنية أظهرت فساد هذه الفكرة وتناقضها وغباءها، فالعبد المخلوق لا يمكن أن يكون جزءاً من الرب الخالق سبحانه وتعالى، لأن حقيقة العبودية وحقيقة الربوبية نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان كما يقول أهل العلوم العقلية ، وذلك أمر بدهي، ولذلك نجد الآية لا تناقش ولا ترد على فكرتهم هذه، بل تصفهم من أجلها بالجحود البالغ فتقول : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾ .

وكل ما جاء بعد هذه الآية من شركهم وأقوالهم فيه لا تناقشه الآية بشيء من الأدلة إلا ببيان مخالفته – لا للعقل السليم وحده – بل ببيان مخالفته لأعرافهم وما هم عليه من أفكار وآراء –، وهذا المنهج هو أحكم ما يكون من الحوار لإقامة حجج الحق وبيان فساد الباطل .

وحين تناول القرآن زعمهم أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يشركون قال : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴾.

وهـذا كلـه حجـج عليهـم مـن واقعهم إذ هـم يحبـون البنـين ويكرهون البنـات، فلو كان لهم يد في اختيار الأولاد ما اختاروا إلا البنين ، فكيف يرضى – والاختيـار بيـده – أن يتخذ البنات ويفضلهم بالبنين ، جل سـبحانه وتعالى عـن اتخـاذ هؤلاء أو هؤلاء، هذا مع أن حالهم في تفضيل البنين على البنات وفي كُـره البنات بلغت الغاية القصوى حيث إن أحدهم حين يُبشَّر ببنتٍ وُلدت له يَسوَدُّ وجهُه خجلاً، ويمتلئ قلبه حزناً يكتمه ولا يكاد يطيقه .

وذكر القرآن هنا تعبيراً أنسـب لهذا السـياق مما ذكر هناك إذ لم يقل « وإذا بُـشِّر أحدهـم ببنت ظل وجهه مسـوداً »، بـل قـال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾، وذلـك لإظهـار شـناعة هذا القول الـذي يصـف الرحمن الذي وسـعتهم رحمته بـما لا يرضى أحدهم لنفسـه، وما يستاء منه أشد الاستياء .

ثم يكشـف لهم سـبحانه وتعالى في هذا الحوار عـن تناقضهم مع أعرافهم مـن وجه آخر وهو أنهـم يُفضِّلون الأبناء لقوتهم على الحـرب هجوماً ودفاعاً، ولقدرتهم على الإفصاح والبيان عند الخصومات ، والنساء بخلاف ذلك لأنهن ينشـأن في الحلي والزينة لا في التمرُّس في الحـروب وحوارات المخاصَمة، ومع ذلك هم يرضون لله الذي بيده الاختيار كله أن يتخذ لنفسه البنات ويختار لهم البنـين ، وكل ذلك مناقضة ظاهـرة لأعرافهم فضلاً عن أن أصل القضية مبنيٌّ على فسـاد ، فالإله الحقُّ لا يلد، ولا يكون له جزء أصلاً لا من الإناث ولا من الذكور ، فالذي يتجزأ سوف يَبيدُ كلُّه في آخر الأمر .

ثُمَّ يحاورهم سبحانه وتعالى في مصدر هذه الأقوال الذي اعتمدوا عليه في التمسك بها ولاسيما في عبادتها، فيكشف من كل الوجوه عن أنها أقوال ليس لها مستند معقول، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

وفي الفقرة الأولى من هذا الحوار حول زعمهم أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث يسألهم سبحانه وتعالى على طريقة الاستفهام الإنكاري: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ ﴾؟ وطبيعي أنهم لا يمكن أن يدعوا ذلك إذ برهان الحس المشترك بين الناس يكذبهم لو ادعوا، فإذا لم يشهدوا خلقهم فشهادتهم باطلة كاذبة، وهذا من أوضح البرهان ولذلك يعقب عليه بقوله سبحانه وتعالى بذكر الحساب والعقاب فيقول: ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ فالسؤال في هذا السياق إنما يراد للحساب الذي يعقبه العقاب.

ثم يذكر سبحانه وتعالى افتراءهم عليه في زعمهم أنهم ما عبدوا الملائكة إلا لأن الله شاء ذلك، فيبين سبحانه وتعالى أنهم يقولون ذلك بلا علم فلا

قيمة في الحوار لزعم لا يقوم على العلم : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يرمون الكلام بالتوهم، رمياً لا تفكر فيه ولا تدبر، وبعد تكذبيهم يسألهم سؤالاً يكشف جوابه عن حقيقة مستندهم في هذه الدعوة، وهو سؤال استنكار كما هو واضح: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾؟ أما الكتاب المزعوم – لو ادعوه – فهو غير موجود ، فكيف يصح بناء هذه الدعوى عليه وهي دعوى – لو وجدت – فمصدرها كتب الله تعالى دون سواها ، وإذا كان الكتاب لا وجود له فالاستمساك به في هذه الدعوى وهمٌ وخيال لا حقيقة له ، فما هو مستندهم؟ ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ ، هكذا قالوا، وهل يكون حقاً كل ما ورثه الإنسان عن آبائه؟ لا شك أنه قد يكون حقاً ، وقد يكون باطلاً ، وقد يكون خليطاً من هذا وذاك ، فلا يمكن الاحتجاج به إلا كما يصح بقولهم : « ربما كان حقاً »، وهي كلمة لا تغني من الحق شيئاً ؛ وهذا الاحتجاج الوهمي هو متكأ الذين يصرون على الباطل ولا يريدون تركه، وهو سنتهم مع رسل الله تعالى منذ القدم ، كما ذكر هنا ربنا سبحانه ، ولكن قِدم الباطل لا يجعله حقاً ولا يقلل من الضلال الذي يتولد منه ؛ ولذلك أُخِّرت مناقشة المتأخرين من أصحاب هذا القول إلى ما بعد ذكر أسلافهم السابقين ليكون النقض موجهاً إلى الفكرة عند القدماء والمحدثين معاً، فأخبر سبحانه عن قول الأنبياء لهم وكأنها قولة إنسان واحد : ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ ﴾ فالمنصف يقول : « لا بل إذا جئتني بما هو أهدى اتبعته »، أمّا هؤلاء فقد ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ وهو كلام يكشف إصرارهم على الباطل وعلى رفض الحق ولو

كان مما أرسله الله الذي أقروا منذ بداية الحوار أنه خالق السموات والأرض ، فصيغة السؤال وجوابهم عليه أبرزتهم في صورة المقِرّ على نفسه بجحود الحق بعدما تبين، وهو ما يجعلهم جديرين بأشد ما يمكن من العقاب، فيكون ذكر العقاب معطوفاً عليه بفاء الترتيب، كالحجة على استحقاقهم له، فقال سبحانه: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ولا ينتهي الحوار حول قضية التوحيد في هذه السورة عند هذا الحد بل يجد المتأمل فيها أن كل قضية لها على صلة بهذه القضية وعلى صلة بهذا الحوار وتقويته ، ولذلك جاء بعد هذا الحوار كلام أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو الأب المبجل عندهم في البراءة من الآلهة المزعومة إلا من الله تعالى، وهذا يدعم قضية التوحيد التي دار حولها الحوار السابق دعماً قوياً لاسيما عند قوم يقدسون أقوال الآباء ، وكأن هذا نقض لما يدعونه من الاهتداء بما كان عليه الآباء، وإنما هو اتباع ما يهوون من أقوال الآباء ومذهبهم .

ويأتي بعد ذلك حديث طويل عن شؤون الرسل مع أقوامهم ويكون في ختامه ما هو كالتتمة لما ذكر عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام في نفي وجود آلهة أخرى غير الله تعالى يبين أن هذا المعنى ليس عند أبي الأنبياء وحده وإنما هو عند كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيقول سبحانه لنبيه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾[1] ؟ وسؤال الرسل - وهم

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٥ .

في غير العالم الدنيوي معناه النظر في كتبهم التي لم تحرف ولم تبدل ، وكلها تشهد بتوحيد الله تعالى، فسؤالها ما هو إلا تأكيد وتوثيق للتوحيد الذي جاء به الأنبياء أجمعون عليهم الصلاة والسلام، وبعد ذلك تأتي قصة فرعون وقومه، وكيف عوقبوا حين كذبوا رسل الله تعالى ، ودعوة سيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام لفرعون وقومه إنما تقوم على أساس التوحيد، فهؤلاء الفراعنة أهلكوا لإعراضهم عن دعوة التوحيد ، وهذا تدعيم آخر لقضية الحوار الذي سبق تفصيله .

ثم تخص السورة عيسى عليه السلام بشيء من التفصيل للعلاقة الخاصة المعروفة له بالتوحيد ، وينتهي حديثه عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[1]، وذلك ينفي مزاعمَ قومه في ألوهيته، وأبْطلُ الباطلِ دعوى يكذبها الذي يزعم الناس أنها له، فيقرّ لله بالعبودية الخالصة . ويختم الكلام ببيان مصير المختلفين فيه ومصير أهل الكفر والعناد عموماً ومصير أهل الإيمان .

وتعود السورة في ختامها إلى قضية التوحيد فيقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[2]، وهو نهج من الحوار عجيب يصل مع هؤلاء المشركين إلى أبعد درجات الافتراض كما تدل كلمة « لو » وهي تستعمل عند الافتراض البعيد جداً أو المستحيل ، كأنما يقول

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٤ .
(٢) سورة الزخرف: الآية ٨١ .

لو استطعتم أن تثبتوا أن للرحمن سبحانه ولداً - وهو مستحيل - فأنا رغم ذلك أكون أول من يعبده .

ولا يفهم من الآية أنها توهم إمكان وجود هذا الولد كما ظن بعض العلماء فاضطروا إلى تأويل الآية بعدة وجوه لا داعي إليها ، وذلك يظهر من وضع الآية في سياقها الذي يدفع هذا التوهم ويقتلعه من جذوره ، إذ إن السورة ذكرت هذه العبارة في سياق كله براهين على توحيد الله تعالى ، وكله وصايا من الأنبياء الكبار بالتوحيد، وفيه كثير من التهديد لمن ترك التوحيد وإخبار عن مصير المشركين في الدنيا والآخرة ، وذلك يحتم أن يكون المقصود بهذه العبارة السخرية من عقولهم المتخبطة في قضية التوحيد وهي من أخطر قضايا الدِّين.

وذلك نظير قول الإنسان لمن يدعي أن له عنده مالاً أودعه وقت كذا وكذا في زمن كذا وكذا، فيقوم المدعى عليه بإثبات براءة ذمته بوجوه كثيرة من شهود وصكوك وعدم لقاء بينهما في هذا المكان وهذا الوقت ثم يقول : إن كان لك عندي مال فأنا أعطيك إياه .

ويكون ختام الحديث عن التوحيد - وختام السورة - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1] ختام بالإقرار لله سبحانه بالوحدانية لا إله إلا هو ، وذلك ينقض كل ما زعموه من وجه الإشراك بالله تعالى إذ لا يصح في عقل سليم أن يكون إلهاً إلا الخالق، وقد أقروا أن الله تعالى هو الخالق، فكل زعم ينافي هذه الحقيقة منقوض .

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٧ .

والحـوار في النص – الذي اختير هنا من السـورة للبحث فيه – هو حوار يقوم على أساس المسلَّمات التي يعتقدونها فيبين لهم أن ما هم عليه من الشرك بالله ومظاهره مخالف لهذه المسـلَّمات ، وهذا المنهج يزيد الحوار قوة ويزيد موقف الخصم ضعفاً، ويكشـف لكل سـامع بطلان ما يدعيه لا بمنطق العقل السليم وحده، بل بمنطق عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم التي تقوم عليها حياتهم حتى ما كان منها وهماً بلا أسـاس كبغض الإناث إلى درجة أنهم يخجلون من مجيئها في ذريتهم فتسود من ذلك وجوههم ويملأ الأسف قلوبهم .

* * *

فبُهت الذي كفر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

تفسير البغوي ١٦٠ - تفسير أبي السعود ١/ ٢٥١

تبدأ الآية قبل ذكر ما جرى في الحوار من سؤال وجواب بذكر سبب هذا الحوار، فهذا المحاور يحاج إبراهيم عليه السلام ، وموضوع الحوار هو رب إبراهيم عليه الصلاة والسلام : لماذا اتخذه رباً ورفض دعوى الربوبية التي يزعمها هذا الملك الذي يرى في نفسه أهلية منازعة الله عز وجل في الربوبية بسبب ما بلغ من عظمة الملك ، ويعدل عن أنه بشر كسائر البشر لا يمكن أن يكون إلهاً، وأن الملك الذي بيده هو عطية من الله تعالى ؟

وتبدأ الآية بهذه العبارة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾، وهي عبارة تستعمل في التعجيب مما يذكر بعدها ، وفي القرآن يتكرر هذا الأسلوب ، كقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[2]، والتعجيب لا يلزم أن يكون معه إنكار واستقباح بل ربما كان معه تعظيم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾[3].

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨ .

(٢) سورة الفيل: الآية ١ .

(٣) سورة الفرقان: الآية ٤٥ .

إنما يأتي معنى الإنكار أو غيره مما يذكر بعدها كما في الآية السابقة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ فالعجب هنا مصحوب بالإنكار والاستقباح، لأن الدافع إلى الحجاج ليس التفهم ولا وقوع الشبهة، وإنما هو كونه ملكاً، ولكن الآية لم تقل إنه حاجّ إبراهيم في ربه لأنه ملك وإنما قالت : ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾، وبين العبارتين فرق كبير، فالعبارة الأولى « لأنه ملك » تنبئ عن اغتراره بالملك ، أما الأخرى التي جاءت في الآية فإنها تنبئ عما في نفسه من جحود، فبدلاً من أن يشكر الله تعالى على ما آتاه، تراه ينازع الله تعالى حق الربوبية بسبب هذا العطاء الذي أنعم به عليه ، وهذا مقدار من الغرور يبلغ به ذروة الطغيان ، ولم يذكره ربنا سبحانه باسمه تصغيراً لشأنه، وتنزهاً عن ذكره، ومعاملة له بضد دعواه ، واكتفى بمناقشة دعواه .

وقد تلقاه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأظهر آثار الربوبية المشهودة لكل الناس، وهي القدرة على الإحياء والإماتة، فهي أمر لا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه وينازع الله تعالى فيه ، وإذا هذا الطاغية يعمد إلى ادعاء هذه الصفة لنفسه بصورة تشوه معنى الإحياء والإماتة : ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ ويوضح الطاغية ذلك الزعم – كما جاء في الروايات – بأنه يعفو عمن حكم عليه بالقتل وهذا إحياء ، ويقتل آخر وهذه هي الإماتة ، وهذا يعني أنه غير غافل عن عجزه بسيطرة الغرور عليه، بل هو يعرف عجزه عن الإحياء الحقيقي ويشعر به، فلذلك يلجأ إلى هذه المغالطة، وهذا ما دعا أبا الأنبياء عليه الصلاة والسلام إلى تغيير مجرى الحوار، فيترك

المحاجة بصفتي الإحياء والإماتة – دفعاً للمراوغة – فلم يقل هذا ليس إحياءً ولا إماتة في الحقيقة ، بل يترك ذلك ويلجأ إلى ذكر صفة القدرة العظمى التي لا تقبل التزوير ولا المنافسة : ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾، وهو أمر لا يقبل الادعاء ولا المراوغة والمداورة ، فكانت النتيجة هي ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ أي انقطعت حجته وظهر بطلانها فدهش وتحير لظهور عجزه وهو ينافي ادعاء الربوبية ، وأهملت الآية ذكره باسمه مرة ثانية تأكيداً لتصغير شأنه، ومعاملة له بضد قصده من دعوى الربوبية، وذكرته الآية هنا بصفة جديدة غير السابقة، وهي هنا صفة الكفر، أي جحود الحق الذي جاء به سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسبب اختلاف الصفة أنه في المرة الثانية قد ظهر جحوده فوصفه بالكفر وقد قام عليه البرهان ، واكتفى في المرة الأولى بصفة المحاجة لأنها كانت قبل ذلك، وفي ذكره هنا بصفة الكفر تصريح وتأكيد لما فهم من الحوار من إصراره على دعواه زوراً ، ولذا جاء ما بعد ذلك مؤكداً له من طريق أخرى، وهي بيان أن الله تعالى منعه من الهدى بسبب ظلمه في دعوى الربوبية وظلمه في منهج الحوار ، وقد منعه الهدى وفق سنة إلهية يعامل الله بها كل الظَّلَمة، وبيّن ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وفي الآية إيجاز عند قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأن البدء بقوله : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فيه إشعار بأن السؤال كان عن ربه أي تعيينه من بين ما يتخذه الناس إلهاً فحق الكلام أن

يجيب بقوله: « ربي الله »، ولكنه عرف أن السؤال عن ربه مراد منه أن يقول له الطاغية ولِمَ اتخذته إلهاً فأجابه بما يعرِّف بالله ذاتاً وصفة، واختار من الصفات ما يوجب أن يتخذه إلهاً لأجله، تقليلاً للكلام وإسراعاً إلى الغاية منه، وفي الآية إيجاز آخر سبقت الإشارة إليه، وذلك عند قوله سبحانه في حكاية قول سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾، فهذه الفاء في قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي ... ﴾ الآية تسمى الفاء الفصيحة، لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره: « فإن قلت ذلك، أي راوغت في قبول الحق بالتأويل الباطل، فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فائت بها من المغرب »، وفي هذا الموضع إيجاز آخر هو أنه - كما ذكرنا سابقاً - لم يرد عليه في ادعائه القدرة على الإحياء والإماتة، بل ترك ذلك وانتقل به إلى دليل آخر لا يمكن فيه الادعاء.

والإيجاز في الحوار القرآني منهج كثير الورود لا يخرج القرآن عنه إلا لهدف يعين على بلوغ الحجة المرادة منها، إذ الهدف الأساسي من الحوار هو كشف الشبهة وقيام الحجة بأيسر الكلام.

* * *

ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

تفسير البغوي ٤٠٩ - تفسير أبي السعود ٣/ ١٠٠

من حوار القرآن مع المخالفين ما يمكن أن يدخل في أسلوب التعريض، إذ يجري الحوار مع غيرهم ممن له علاقة قوية بموضوع الحوار ويكون لكلامه فيه أثر كبير في نقض ما يدعيه المخالفون، وذلك كالحوار مع سيدنا عيسى عليه السلام في آخر سورة المائدة، حيث يسأله ربه ويجيب جواب العبدية الكاملة المباينة لكل مظاهر الربوبية كما يظهر من كل جزئية في الحوار، وذلك ينقض كل ما يدعيه الذين زعموه إلهاً وعبدوه وأمه من دون الله تعالى، وكأنه

(١) سورة المائدة: الآيات ١١٦-١٢٠.

يقال لهم : اسمعوا نقض ما تدعون على لسان الذين تزعمون له بالباطل ما تزعمون .

يبدأ الحوار في مشهد المحكمة الإلهية يسائل الله فيها عبده ورسوله عيسى عليه السلام ويقف سيدنا عيسى عليه السلام موقف المحاكَم المسؤول فإذا كملت المساءلة وجاء الجواب مظهراً للحقيقة أصدر الله عز وجل حكمه ، وكل شيء في الحوار ناطق بالمفارقة بين العبد والرب ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؟ ومن البداية يبدأ السؤال بأن الله تعالى هو قائله ، وكان حق الكلام – وهو إخبار من الله تعالى – أن يقول سبحانه : « قلت يا عيسى »، ولكنه صرح بالاسم الأخص له سبحانه وهو مشتق من صفة الإلهية : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ لتكون المفارقة أوضح وأقوى ، كما جاء خطابه سبحانه لسيدنا عيسى عليه السلام مع صفة البنوة لمريم عليها السلام : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ وهي صفة بشرية للمخلوق لا يوصف بها الإله سبحانه .

ثم يطرح عليه السؤال : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؟

فيكون جواب سيدنا عيسى عليه السلام ، التبرؤ مما زعم له المشركون ، والتقديس المطلق لله تعالى، وأول كلمة فيه ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي أنت منزه عن أن يكون لك شريك ، يتلوها التصريح بعدم صحة ما زعموا له، وأنه لا يمكن أن يقوله لأنه ليس من حقه : ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾، وهذا أقوى

من أن يقول: « ما قلت ذلك »، لأن هذا مجرد خبر، أما ما جاء في الآية فهو خبر بالنفي معه برهان، وهو أن هذا القول ليس من حقه ، ثم يُشهد سيدنا عيسى عليه السلام ربه على أنه لم يقل من ذلك شيئاً : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، ثم يتبع ذلك بعبارة هي برهان على علم الله بكل ما في نفسه ، وعلى علم الله بأنه لم يقل شيئاً مما زعموا له ، وهي في نفس الوقت وصف واضح للمفارقة الكبيرة بين صفة الرب وصفة العبد ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، ومن كان كذلك كان عالماً بكل شيء صغر أو كبر ، ولذلك جاء بعده قوله سبحانه : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ على لسان سيدنا عيسى عليه السلام، وكله تأكيد على إثبات علم الغيب لله سبحانه، وعلى وجه التخصيص والحصر تتصدر الجملة كلمة : « إن » ويأتي الخبر بصيغة المبالغة « علام » بدلاً من « عالم »، ويجمع لفظ الغيب فيأتي بدلاً عنه لفظ « الغيوب » والإضافة إلى المعرف بالألف واللام تفيد العموم، ويأتي بين اسم إن وخبرها ضمير الفصل: « أنت » ليدل على حصر هذه الصفة فيه سبحانه وتعالى ، وكل ذلك يقوي تبرؤ سيدنا عيسى عليه السلام من قول ما زعم المبطلون : أنه قال لهم : ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليكون نقضاً لمزاعمهم على لسان من زعموها له عليه السلام.

وبعد سوق البراهين على براءته عليه السلام مما نسبوه إليه يأتي نفي القول عن نفسه لكن لا بطريق مباشر خاص بل بطريق الشمول بنفي قوله أي زيادة على ما أمره الله عز وجل به : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، وهو أقوى في الدلالة على البراءة، ثم يفسر ما قاله لهم مما أمر به : ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ بتفصيل لا بإجمال مثل أن يقول : (اعبدوا الله ربنا) بل يقول : ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ويقدم كلمة « ربي » لأنه أوضح وأتم في بيان عبديته لله تعالى هذه الصفة التي خالفها المشركون فجاء قوله رداً على مزاعم أولئك الناس، ثم يعود عليه السلام إلى تأكيد عبديته - كما أكدها فيما سبق - فيقول: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ فأنا لست - كما يزعمون - إلهاً ، إذ الإله لا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه شيء ، وأنا لا أعلم ما قالوا وفعلوا في غيابي إلا أن تعلمني أنت ، ثم يذكر عليه السلام أصرح وصف له وللمخلوقين مما ينافي الإلهية : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي مع تفرد الله تعالى بعلم أحوالهم بعد وفاته ، لأن ضمير الفصل كان بين اسم كان وخبرها يفيد الحصر لاسيما إذا كان الخبر معرفاً بالألف واللام، ثم جاء قوله سبحانه : ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مؤكداً لكونه الرقيب عليهم فهو المشاهد الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء من مخلوقاته في أي حال .

ولما كان معلوماً أن الله تعالى يعذب من أشرك به صرح سيدنا عيسى عليه السلام - كما هو مقتضى العبدية - أنه لا يملك أن يتدخل في شأن العقاب لا في وقوعه ولا في دفعه : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وليس لأحد أن يعترض على ما يفعل الرب بعبده ، ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي فليس لأحد أن يعترض عليك ولا أن يشك في حكمتك إذا غفرت لهم . وقد جرت عادة القرآن الحكيم على ذكر صفة الرحمة والمغفرة بعد طلب المغفرة كأن يقال (واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم)، وجاء الكلام هنا بذكر العزة والحكمة،

وسبب ذلك – كما قال العلماء – أن المغفرة للمشرك لا تكون كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾[1]، لكن لا اعتراض على الله لو فعل لأن العزيز لا تستطاع معارضته ، ولا بد أن يكون لذلك حكمة ؛ إذ الحكيم الذي بلغت حكمته أكمل الكمال – كما دل تعريفه بالألف واللام – لا يمكن أن يفعل إلا ما هو حكمة ؛ ومن أجل هذه الفائدة جاءت الجملة مؤكدة بتأكيدات متعددة: الجملة اسمية شاملة لكل الأزمان لا تتقيد بواحد منها – كما في الجملة الفعلية – وهي مصدرة بحرف التوكيد إن ، والخبران كل منها بصيغة (فعيل) التي تدل على المبالغة وكمال الصفة ، وهما معرفان بالألف واللام فيفيدان حصر الصفتين فيه سبحانه على معنى أنه بلغت حكمته أتم الكمال فكل حكيم سواه كأنه غير حكيم، وكل عزيز سواه غير عزيز، ثم أكد هذا الحصر بزيادة ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ، وبذلك يتم على لسان عيسى عليه السلام نقض كل ما زعمه الناس له من معاني الإلهية، ويتم دحض أقوالهم وزيف مستندهم في عبادته عليه السلام ، وذلك أعظم عبرة لمن يعتبر .

بعد هذا جاءت شهادة الله تعالى وقضاؤه بصدق عيسى عليه السلام – وتصديقه تكذيب لهم – فيقول الله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ﴾، وهذا أبلغ من أن يقال له مثلاً: هذا يوم ينفعك صدقك ؛ لأن الحكم العام لكلّ من كان مثله يكون كالقاعدة التي بني الحكم عليها، وجاء مع الصدق جزاؤه – ضمن قافلة الصادقين – : ﴿ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ

(١) سورة النساء: الآية ٤٨ .

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الـذي لا يدانيـه فـوز وكأن كل فوز سواه لا وجود له .

أخـيراً يـأتي الختام الذي يـدل على أنه لا أحـد ولا شيء إلا وهو مملوك لله تعالى، وهو على كل شيء قدير ؛ فلا يستحق اسمَ الإله غيرُهُ، ولا تكون العبادةُ إلا لـه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فـما أصدقَـه وما أحكمَه من ختام ! وما أجلَّه وما أعظمَه من برهان على وحدانية الله تعالى، يمـلأ العقولَ السـليمةَ المنصفـةَ إقناعاً ، ويمـلأ القلوبَ المتدبرةَ عِبرةً وخشـيةً وتوحيداً !

* * *

الفصل الثاني

نماذج من حوار القرآن مع المخالفين

في قضية: البعث والجزاء

الفصل الثاني

نماذج من حوار القرآن مع المخالفين

في قضية: البعث والجزاء

من يحيي العظام وهي رميم:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

في خواتيم سورة « يس » هذا الحوار حول قضية البعث بعد الموت، وهي جزء من « الإيمان باليوم الآخر » أحد الأركان الستة للإيمان ، وهي ذات جوانب متعددة أساسها الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وإحياء الناس بعد موتهم من جملة ذلك، فحقه أن يؤمن الناس به لاسيما المخاطبين بالقرآن أولاً وهم العرب ، إذ كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2]، ولكن غلب على عقولهم ما اعتادوه وتوارثوه فعبروا عنه بقولهم: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[3]، فكانت هذه العقول بحاجة ماسة إلى أن تحركها الأدلة

(١) سورة يس: الآيات ٧٧-٧٩ .

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٨ .

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٤ .

والبراهين واحداً بعد الآخر ، وخواتيم سورة « يس» نموذج من ذلك يحسن استعراضُه وتبيّنُ نهجه .

وهذا الحوار لا نجد فيه إلا الحوار المنطقي الخالص، ولكن بأسلوب يعتمد على البداهية وعلى ما هو مسلمات لا تنكر عند هؤلاء المخاطبين ، ولكنه قبل بدء الحوار ينبه المنكرين للبعث إلى أنهم يقفون موقف الغافل عن أصله وهو أنه يخاصم من خلقه مع أنه مخلوق من نطفة أي ماء قليل وهو ماء مستقذر عنده، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (١)، وهذه الآيات نزلت كما روى الحاكم في المستدرك بمناسبة قول قاله أبي بن خلف وهي رواية صححها وأقرها الذهبي ٢/ ٤٢٩ ، وفي رواية أخرى لدى الحاكم ٢/ ٤٣٨ أنه العاص بن وائل السهمي ، ولكن الآية لم تذكر اسمه المعروف وإنما ذكرته باسم الإنسان لأن الحجة التي ترد عليه إنما ترد عليه من حيث إنه إنسان لا من حيث إنه فلان؛ إذ كل إنسان مخلوق من نطفة فهذه الحجة تكون عليه وعلى كل إنسان، وتظهر غفلته عن نفسه كما تظهر ذلك لكل إنسان يتطاول إلى مخاصمة خالقه مع علمه بضعف أصله وحقارته، وبذلك تحرص على التعجيب من هذا الموقف المشين كل السامعين وتوبخه عليه وتستنكره منه كأنه لشدة غفلته أعمى لا يرى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾، والإنسان قد خلق أطواراً كما ذكر القرآن : نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً ولحماً حتى تم خلقه ونفخت فيه الروح، ثم خرج طفلاً ثم نما وشب وتعلم الكلام والحجاج

(١) سورة يس: الآية ٧٧ .

فخاصم ، ولكن الآية تطوي ذكر ما بين النطفة وموقف الخصومة لربه لبيان بعد ما بين الحالين وتعارضهما تقبيحاً لهذا الموقف وزجراً عنه فما ينبغي أن يكون، وأكدت الآية هذا المعنى باستعمال فاء التعقيب وإذا الفجائية: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فيا لقبح هذا الموقف ونكارته.

ثم تعرض الآية الخصومة وترد عليها بثلاثة من الأدلة كل منها في غاية الظهور والبداهة فتقيم بها الحجة على أعلم العلماء وأبسط البسطاء لكن لا تخاطبه مباشرة بل تأمر النبي ﷺ الذي خاصمه هذا الإنسان أن يجيبه : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ جاء بعظم حائل - أي متغير من القدم - فَفَتّه فقال : يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرم؟ قال: « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم »[1].

وقبل أن يأتي السؤال والجواب تنبه الآية هذا الإنسان على غفلته عن الدليل القائم في كيانه فتقول : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ و ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ؟ فردته الآية إلى الدليل الذي غفل عنه : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهو دليل بدهي لا يقدر أحد أن يجادل ويداور فيه؛ فالذي يصنع الشيء - إنشاء وابتداء - من غير مثال سابق لا شك أنه يقدر على إعادته كما كان لأن الإعادة - في مجرى عادات الناس - أهون من الابتداء، وجاءت كلمة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تأكيداً لمعنى الإنشاء والابتداء ، وكان الأصل أن يجيء البرهان بعد ذكر القضية فيقال : « يحييها الله لأنه هو

(١) أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي ٢/ ٤٢٩ .

الذي أنشـأها أول مرة »، ولكن الآية جـاءت على هذا الوجه من الاختصار فجعلـت الدليل صفة للفاعل، وحذفـت لفظ الفاعل فصار إثبات الفعل له سـبحانه وتعالى ممزوجـاً ببرهانه ، وذلك أبعد عن أسـلوب الجدل وما يثيره ولـو بصورتـه، وأكد ذلـك بقولـه : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي لا يخفى عليـه كيف يخلق أي مخلوق كان . ووجه إفادتها التأكيد هو أن من علم خلق كل شيء فعلمه بواحد منها أثبت وأظهر.

ثم ذكر الدليل الثاني بالأسلوب نفسه فذكر الاسم الموصول وصلته على أنـه بدل أو عطف بيان على الموصول الأول : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ ولكن مضمون هذا الدليل مختلف عن السـابق فالقدرة الإلهية هنا تتجـلى في الحرق لا في إعادة الخلق الأول، إلا أن الدليلين يلتقيان في إيجاد الشيء من ضده : رفات تتحول إلى جسم ذي حياة، وشـجر أخضر ينبض بالحياة يتحول إلى نار محرقة تحولاً يراه دائماً لاسـيما في أنواع الشجر يحتك بعضها ببعض فتخرج النار كشجرتي المرخ والعفار ، وهذا الإنسان لا يفكر في القدرة التي حولته تحويل النقيض إلى نقيضه، فما أحراها أن تحيي العظام وهي رميم وتعيدها كما كانت أول مرة ! وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ تنبيه بواسـطة أداة المفاجأة على سرعة التحويل ، وقدم الضمير « أنتم » ليفيد أمرين : أولهما: التأكيد على أنهم يشاهدون ذلك ويعملونـه بأيديهـم فهم خبراء به ، والثاني : أن ذلك الاسـتمتاع بهذا الإيقاد نعمة يتنعمون بها، ويعلمونها علم الممارسـة، فيناسـب ما تقدّم أول الآية من قوله سبحانه وتعالى ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾.

ثم جاء الدليل الثالث بأسلوب مختلف هو أسلوب الاستفهام التقريري: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ ، وأسلوب الاستفهام التقريري يؤتى به حين يكون الأمر المستفهم عنه محتم الجواب بالإقرار ، والذي جعله محتم الجواب بالإقرار ما فيه من وضوح الدلالة والبرهان أولاً من حيث إن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان فمَنْ أقرَّ بأن الله قادر على خلقهما لزمه أن يقر بقدرته على إعادة خلق الإنسان ، وثانياً ما تقدّم من البراهين، وهو أن الإعادة أقرب إمكاناً من البدء ، وأن من خلق الشيء من ضده لا يعجزه خلق شيء على الإطلاق .

ولأن هذا كله يوجب الإقرار صرّح القرآن الكريم هنا بالجواب بقوله : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، ثم صرح سبحانه وتعالى بكيفية خلقه الأشياء كلها ما صغر منها وما كبر، ما دق وما جل، صرّح بأن الجميع عنده سواء في قدرته عليه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ من كان كذلك كان جديراً بالتنزيه عن كل عجز وكل نقص وكان من البديهة أن يرجع الخلق كلهم إليه : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فسبحانه سبحانه .

* * *

ما غرك بربك الكريم :

الحوار مع المخالفين حول اليوم الآخر وإعادة خلق العباد لأجل الحساب من أنواع الحوار التي تكررت في القرآن الكريم كثيراً وتنوعت أساليبها بين حوار منطقي برهاني ، وحوار زجري تهديدي يكشف العناد ويوبخ عليه ، وحوار وعظي يذكر بالحق ويستثير في النفوس الإنصاف والتراجع عن الباطل ويترفق بالمخالف لعله يستجيب وأحياناً يجمع ذلك كله، وهكذا يتنوع الحوار للوصول بهم إلى الحق والصواب .

ومن ذلك النوع الأخير سورة الانفطار تحاورهم باختصار يلفت أنظارهم إلى ما هم فيه من غفلة واغترار، وينبههم على ما هم عليه من ترك العرفان والاعتبار، رغم ما هم قادمون عليه من دخول الجنة أو النار .

وموضع الحوار في السورة أساساً هو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1]، ثم يتبع ذلك بذكر الأمر الذي سلكوا فيه طريق الاغترار وهو تكذيبهم باليوم الآخر يوم الجزاء على الأعمال ، ثم يتبع ذلك بيان عاقبة الغرور وعاقبة الإيمان وسلوك الأبرار ، وكل ذلك يأتي دون تعرض صريح لإقامة البرهان أن هذا اليوم آت لابد منه، وأنه لا يصعب على قدرة الله كما جاء في سورة « يس » أو سورة « ق » وكثير غيرهما، فذلك ليس من غرض هذه

(١) سورة الانفطار: الآيات ٦-٨ . تفسير البغوي ١٣٨٧-تفسير أبي السعود ٩/ ١٢٠ .

السـورة، وإنما غرضها الأسـاسي هو التنبيه على خطأ الاغـترار، وأنه أمر ينافي الطبيعة الإنسانية المنطقية التي تدفع صاحبها إلى عرفان الجميل لأهله والشكر عليه، فالشكر عند الله مكتوب، والكفران محسوب، سيراه صاحبه يوم القيامة ويحاسب عليه .

وقبل أن يبدأ موضوع الحوار تشرع السورة بعرض شيء من أحداث يوم الحـشر وأهوالـه، اليـوم الذي تعلم فيـه كل نفس أعمالها من خـير وشر ، فهذه الأحـداث تهز الشـعور بأهوالها وتوقظ العقول من سـباتها لعلها تفكر وتتدبر وتعتـبر ، وهـي معروضة بأسـلوب لغوي فيـه تنبيه قوي فالجمـل الأربع التي تعرض أحداثاً من يوم الحشر كلها جمل مصدرة بأداة الشرط « إذا » وهي تجعل الإنسان في حالة انتظار وترقب لجوابها، فإذا ذكر الجواب أخذ من نفس السامع موقع الاهتمام والتفكر والرسوخ .

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[1]، وانفطـار السـماء هـو تشققها وتقطعها ، وانتثار الكواكب هو خروجها عن مساراتها في انفلات غير منضبط، وتفجر البحار هو زوال الحواجز البرية التي بينها حتى تختلط وبعثرة القبور هي إثارتها وقلبها وإخراج من كانوا فيها ، ففي هذا اليوم يرى الإنسان أعماله، وتناله عواقبها من خير وشر .

ورغم ما في هذه السـورة من الأهـوال لا يقول الله تعالى لمن يحاورهم من

(١) سورة الانفطار: الآيات ١-٥ .

المخالفين : « إذا وقعت هذه الأهوال علمتم ما قدمتم وما أخرتم » لأن في ذلك معنى التهديد ، والسياق سياق تنبيه يعقبه تذكير، فيه ترفق كبير، فيقول بدلاً من ذلك: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾، والمعنى في العبارتين واحد، ولكن الترفق بالتذكير اقتضى عدم المواجهة بما يخيف ويحمل معنى التهديد، وبذلك تتهيأ نفس السامع لتقبل الحوار وما يدعو إليه فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

وقد تقدّم أن الآية مسوقة لتنبيه الإنسان برفق إلى ما هو فيه من البعد عن الصواب في تكذيبه بيوم الدين يوم القيامة، ولما كان حال المغرور حال غافل يحتاج إلى التنبيه بدئت هذه الآيات بأسلوب قوي من أساليب النداء هو : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ فكلمة « يا » تستعمل في اللغة لنداء البعيد أو البعيدة مكانته علواً أو سفلاً، أو كان في حالة غفلة يحتاج معها إلى تنبيه قوي ، وتوسيط « أي » بينها وبين من يوجه إليه النداء يزيدها قوة لأن معنى يا أيها الإنسان هو بمنزلة: يا من هو إنسان، بدلاً من أن يقال: « يا إنسان »، فتوسُّطُ الاسم المبهم بين أداة النداء وبين المقصود نداؤه يفيد قوةَ التركيز على ما في هذا الاسم من معنى بمنزلة الصفة، فإذا قلت: يا أيها الرجل، كان ذلك نداءً له باعتبار صفةِ الرجولة، ولذلك يقولون في الإعراب: « الرجل صفة لأي » رغم أن الرجل اسم جامد، يمتنع في الأصل أن يأخذ موضع الصفة في الإعراب .

وتوجيه النداء – بهذا الأسلوب القوي – إلى الإنسان تنبيه له على أن صفة

الإنسانية – بما فيها من معانٍ سامية أهمها التعقل والإنصاف – ينبغي أن تمنعه من السقوط في هوة الغرور وهوة الطيش والتعالي على الحق، ولذلك كان لومه على الغرور بصيغة ما « غرك » وهي من أساليب الاستفهام المراد به الإنكار بمعنى لا ينبغي أن يغرك شيء ، لما جعل الله فيك من موانع الاغترار ، ولما اتصف به ربك من موانع اغترارك من كرم وإحسان كبير إليك، ولذلك لم يذكر الاسم الأول من أسماء الله تعالى هنا وهو « الله » وإنما ذكر اسم « الرب » الدال على التربية والرعاية والإصلاح ، وأضيف إلى ضمير المخاطب « ربك » مع أنه سبحانه وتعالى هو رب كل شيء تنبيهاً للإنسان على ما خصه به الله من الرعاية وذلك يقتضي ألا يغتر به سبحانه وتعالى .

ويلاحظ أن هذه الآية وما معها لم تأت على صورة الاحتجاج المنطقي كأن تقول ما كان ينبغي لك أن تغتر بالله لأنه ربك وراعيك ، وذلك لأن الحوار المنطقي يخاطب العقل وحده بينما الأسلوب الذي جاءت الآية عليه يخاطب القلب صراحة ويخاطب العقل ضمناً، فيكون الأثر أكبر وإمكان الاستجابة أقوى إذ يمتزج الدليل والقضية معاً كما لو قال إنسان متحدياً : مَنْ يستطيع أن يغلبني، فيجيبه مَنْ غلبه سابقاً: يغلبك مَن غلبك من قبل .

ولهذا الغرض أيضاً جاءت الصفات الإلهية الأخرى – المانعة للإنسان من الغرور بربه – على أسلوب الصفة للرب سبحانه وتعالى لا على طريقة الاحتجاج المنطقي : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ وكل واحدة منها تحمل وجهاً من الإحسان

المانع من الغرور، فكلما سمع الإنسان واحدة منها كبر لديه الشعور بخطئه وبضرورة مراجعته لنفسه وكفِّها عن الباطل .

وقد تقدّم أن صفة « الربوبية » تعني الرعاية والإصلاح فهذا هو المانع الأول من أن يغتر به الإنسان فيكذب بلقائه وحسابه، فالتكذيب به إغراق في الاغترار، ووصفه سبحانه بـ« الكريم » مانع ثان من موانع الاغترار به لأن حق الذي أكرمك هو أن تشكره لا أن تغتر به ، ولو كان وصف الكريم مراداً به صاحب المكارم أي الصفات الحسنة الطيبة فهو أيضاً مانع من موانع الاغترار فإحسان صاحب المكارم أوسع لتعدد الصفات الموجبة للإحسان، فالمانع هنا أكبر.

وأكبر منه وصفه سبحانه وتعالى بـ« أنه خالق للإنسان » لأن الإحسان عمل تنتفع به الذات أما الخلق فهو إيجاد لها من العدم ، وحقه أكبر وأداء حقه أوجب، أمّا الاغترار به ونكران لقائه فهو أشد الإساءة، وقوله « الذي خلقك» أنسب من أن يقال (خالقك) لأن في الصلة التصريح بإيقاع فعل الخلق على المخاطب وهو الإنسان وذلك أوضح في الدلالة على إحسانه المانع من الاغترار به، وهو ثالث الموانع .

ويكبر هذا الإحسان بالخلق إذا كان مع التسوية « خلقك فسواك »، لأن الخلقة غير السوية تضر بالجسم أو تؤدي إلى عجزه وتشوه منظره ، وإذا كان ضرر فوتها شديداً فالتسوية هي إحسان عظيم، وهي مانع رابع من الاغترار به.

وقولـه سـبحانه ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ يمكـن أن يكـون بمعنى تعديـل الخلقة أي جعلهـا معتدلـة ، ويمكـن أن يكـون بمعنى العـدل أي الصرف عـن شيء إلى شيء، ويكون وجه الإحسـان في ذلك أن الله صرف خلقة الإنسـان عن صور أنواع الحيوانات إلى صورة أحسن، بل خلقه في أحسن تقويم كما قال سبحانه ، وذلك إحسـان عظيم يمنع الإنسان من الاغترار به، هذا الاغترار الذي بلغ به أن يكذب بالدين، فهو مانع خامس من الاغترار .

وقولـه سـبحانه ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ بيـان لعظمـة هذه الصورة التـي شـاءها الله تعالى للإنسـان من بين صـور المخلوقات فجعلـه ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴾[1]، وذلك يقتضي الإقرار بفضله لا الاغترار بكرمه وإمهاله، وهو مانع سـادس من موانع هذا الاغترار ، وملاحظة هذه الموانع تعطي قوله سـبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ﴾ قـوة كبـيرة في إفادة إنكار الاغترار عليه وتعجيبه مـن سـوء موقفه ولومه على هـذا الموقف – مع أن هذا الفصل من السـورة فيه ترفق كبير بالإنسان المخاطب – لعله يراجع نفسه ويكف عن غروره .

والجـواب الـذي يفرضـه العقل السـليم على مـن أراد الجـواب عن هذا السـؤال : ما غرك بربك ... هو لا شيء إلا الجهل والحماقة وضعف التفكير أو هو العناد وترك الإنصاف والإعراض عن تفهم العواقب مع العلم بها .

ولأن هـذا الجواب صار حاضراً يفرض نفسـه عـلى المخاطب فلا يجد بداً

(١) سورة التين: الآية ٤ .

من الإقرار تغير الأسلوبُ وجاء بعدَه هذا التقريع والزجر ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾[1] كأنه قيل لهم: لا شيء يبرر هذا الغرور، إنما أنتم في حالةِ إصرارٍ على التكذيب بالدين دون مبرر، ثم أعقب ذلك بمقدمة التهديد والوعيد فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، فإذا كتبوا أعمالكم حاسبكم الله عليها والنتيجة هي: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[3]، وجاء بعد هذا تفصيل حال أصحاب الجحيم دون الأبرار - لأن أصل الخطاب كان مع المكذبين، وحقهم بعد ذلك البيان أن يهددوا بالجحيم فجاء قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[4].

وهكذا يظهر في هذه السورة أسلوب خاص من الحوار، ليس هو الحوارَ المعتادَ يتداول فيه الطرفان الكلام بين سؤال وجواب وعرض واعتراض، وإنما هو تنبيه إلى حال المخاطب وهو الإنسان واغتراره بربه، بتوجيه الخطاب إليه على صورة سؤال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ...﴾ وكأنما السياق سياق نقد لهذه الحالة وعرض لما ينتج عنها، دون أن يكون للإنسان الذي يخاطبه دور في هذا كله إلا أن يتلقى ويسمع، فهو حوار للحالة لكنه مُوَجَّهٌ إلى صاحبها فيسمع ولا يتكلم.

---

(١) سورة الانفطار: الآية ٩.

(٢) سورة الانفطار: الآيات ١٠-١٢.

(٣) سورة الانفطار: الآيتان ١٣- ١٤.

(٤) سورة الانفطار: الآيات ١٤-١٩.

يا عبادي الذين أسرفوا :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

تفسير البغوي ١١٢٩ - تفسير أبي السعود ٧/ ٢٥٩

هذه الآيات تشتمل على وجه من الحوار رفيق غاية الرفق يستدرج الكافرين إلى الهداية استدراجاً بما يفتحه لهم من آفاق العفو والغفران والرحمة التي لا حدود لها ، وهذا كله رغم أن الآيات ألمحت إلى ما عليه بعضهم من الكفر والسخرية والتهرب من الإيمان بدعوى أن الله لم يرد لهم الهداية، كما ألمحت الآيات إلى ما عليه بعضهم من الكذب على الله والتكبر على رسله وأهل طاعته وعلى كل مسالك الهداية ، فلم تبدأهم بالتهديد والوعيد الذي

(١) سورة الزمر: الآيات ٥٣-٦١ .

يستحقونه، ولكنها سلكت بهم من أجل ذلك كله مسلك التحذير حتى انتهت إلى مواجهتهم بسوء حالهم : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، وهذا تذكير بما وقع في الدنيا من مجيء الآيات واستكبارهم عنها وكفرهم بها، وهو نقض لدعواهم أن الله لم يهدهم، ثم انتهت إلى التصريح بالمصير السيئ لمن يكون كذلك دون أن تصرح لهم بأنهم من أهله : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وقرنت هذا بمصير أهل التقوى ليقترن الترغيب بالترهيب : ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وهذا ختام الحوار وهو صورة تمس القلوب فتوقظ فيها الرجاء بالنجاة من السوء والأحزان، وتدعوها لإجابة دعوة الله سبحانه .

وكما كانت كلمات هذه الآيات وعباراتها رفقاً وترحماً كانت أسباب نزولها دالة على ذلك أيضاً، فقد ذكر البغوي في تفسيره [1] مناسبات متعددة نقلها عن الصحابة والتابعين لا داعي للترجيح بينها لأن الآيات المذكورة تناسب الجميع، فإذا كان أحدها هو السبب المباشر فكل منها بعد ذلك يكون مقصوداً جوابه بها لما بينه وبينها من التناسب ، منها قصة عياش بن أبي ربيعة وصحبه الذين نطقوا تحت العذاب بكلمة الكفر فظنوا وظن كثيرون من الصحابة أن الله لا يقبل أمثالهم ، ومنها خبر دعوة النبي ﷺ وحشياً قاتل حمزة رضي الله عنه إلى الإسلام وخوف وحشي من ألا يقبله الله .

---

(١) تفسير البغوي ١١٢٩ .

والتعبيرات القرآنية بمضمونها وأسلوبها تبرز الأغراض والمقاصد وحقوق المناسبات، وذلك يظهر من إيضاح العبارات إن شاء الله تعالى :

فأول ذلك أن الآيات بدأت بهذا النداء : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ﴾ وهي تفصح بالترفق الرحيم من الله تعالى وبحثٍّ الرسول ﷺ على الترفق الرحيم بهم ، وذلك مما يجعل قلوبهم تتفتح لقبول الحوار، فالله تعالى – مع قدرته على الانتقام ممن يكذبه ويعصيه ويخالفه – لا يفعل ذلك، بل يدعوهم بكل رفق إلى تلقي رحمته وعدم اليأس منها رغم أنهم أسرفوا على أنفسهم، ويدعوهم بالصفة التي تربطهم به (صفة العبودية) – وأقل حقوق الرب على عبده أن يستجيب له إذا دعاه – ويضيفهم إلى نفسه بياء المتكلم إشعاراً بالقرب ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ﴾ ثم يتبع ذلك بذكر صفتهم التي تبعدهم عنه سبحانه وهي الإسراف على أنفسهم، لكي لا تقول لهم أنفسهم إنكم بعدتم عنه بإسرافكم فهو لا يريدكم برحمته إنما يريد من عباده غيركم ، فجاء ذكر هذا الوصف يعكس هذا المفهوم إذ إن ظاهر الآية يبدو فيه تخصيصهم بالنداء مع وجود هذه الصفة بل يخصصهم بالنداء لوجود هذه الصفة ليبعدوا عنها فيكونوا من الناجين، وهذا إشعار بمزيد الرحمة والتفضل جواباً على قولهم « هل لنا توبة تمحو الذنوب » بصدق أو بغير صدق لتكون الحجة عليهم قائمة دامغة، آمنوا أم لم يؤمنوا .

حتى إذا كمل هذا البدء الذي تستشرف إليه القلوب وتلين له أتبعه سبحانه بما يزيل الخوف من عدم القبول ، ذلك الخوف الشديد المسيطر على القلوب بيأسه وقنوطه فقال سبحانه لهم : ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾ وفي هذا النهي تأكيد على

زوال الموانع التي توهموها إذ لم تكتف الآيات بإخبارهم عن انتفاء ما يدعو إلى القنوط، بل أشعرتهم بأن الله يكره القنوط لهم إلى درجة أنه ينهاهم عنه نهيه عن المعاصي التي يبغضها ، وكان هذا الكلام المعتاد كافياً لإزالة القنوط من أنفسهم ولكن الله سبحانه قال: ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ والقنوط لا يتلاءم مع الرحمة بل يستبعد غاية الاستبعاد فإذا كانت رحمة الله التي وسعت كل شيء كان القنوط أكثر استبعاداً إن لم نقل إنه محال ولذا قال سبحانه: ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ بإضافة الرحمة إلى اسمه الأخص اسم الألوهية ، رغم أن السياق لو استمر على النسق السابق كان يقتضي - كالأسماء السابقة - الإضافة إلى ياء المتكلم ، فيقال لا تقنطوا من رحمتي، وكل ذلك الترغيب كان كالمقدمة للمطلوب الأساسي وهو إعلامهم بالمغفرة الشاملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾، وفيه وجوه عدة من تأكيد عموم المغفرة : فالجملة كلها مؤكدة بإن ، وتقديم اسم الله مشعر بتأكيد المغفرة لأن شأنه كذلك ، ومجيء الفعل بصيغة المضارع الدال على الاستمرار حاضراً ومستقبلاً يفيد الشمول الزمني ، وتعريف الذنوب بالألف واللام يفيد شمول الذنوب بأنواعها مع تأكيد الشمول بقوله ﴿ جَمِيعًا ﴾، ولم يأت هذا المطلوب بصيغة الوعد كما لو قيل : « الله سيغفر لكم »، بل جاء بتعبير يدل على أنه شأن من شؤون الله تعالى ووصف من أوصافه، ثابت لا يتغير ولا يزول ، وفي ذلك طمأنة عظيمة لقلوب الصادقين المتخوفين من أن لا يقبلهم الله تعالى بعد الذي صنعوه وأسرفوا فيه .

ثم جاء قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تأكيداً للحكم المطلوب كله بعد التأكيدات لأجزاء الكلام السابق ، فكونه سبحانه

﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾ بما في هذا الاسم من إفادة تكرار المغفرة وعمومها ، وكونه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بما فيه من تكرار الرحمة وعمومها يرسخ في نفس السامع حصول وعده سبحانه بمغفرة الذنوب جميعاً ، ووجود ضمير الفصل « هو » بين اسم إن وخبرها فيه معنى القصر أي لا أحد غيره سبحانه يتصف بهذين الوصفين: « الغفور الرحيم »، فإن أريد القصر التحقيقي كان المعنى أن اتصافه سبحانه بهما على جهة الكمال الذي لا حدود له، والشمول الذي لا حدود له وأن ذاك أمر خاص به لا يوصف به غيره سبحانه ؛ وإلا كان المعنى أن اتصاف العباد بالرحمة والمغفرة يتلاشى بجانب مغفرته ورحمته سبحانه وتعالى فكأنه لا شيء، ويكون هذا هو معنى أسلوب القصر بواسطة ذكر ضمير الفصل بين اسم إن وخبرها لما جاء في الحديث الشريف : « **جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** »[1].

ثم أتبع سبحانه هذا المقصد الأساسي - لدفع ما يتوهمه الذين لا يتدبرون القول - بتحذيرات تدفع إساءة فهم الرحمة الشاملة ، فحذر سبحانه من إهمال الإيمان والتوبة إلى أن يأتي العذاب اغتراراً بهذه الرحمة، فحذر سبحانه من تأخير امتثال أمره والتهاون بطاعته والتسويف المتطاول إلى أن يبغتهم العذاب، فقال سبحانه : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.

---

(١) رواه البخاري ٥٦٥٤، ومسلم ٢٧٥٢ .

ثم بين لهم سبحانه النتائج السيئة للإهمال والتهاون والتسويف، وحذر منهـا فقال : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، ولم يحاورهم سبحانه في هـذه الأقوال لأنهـا مجرد حسرات وأمنيات ، إلا في قـول من قال منهم: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، لأن في هذا القول تهرباً من مسؤولية الإعراض عن دعـوة الله ورحمته ومغفرته، واتهامـاً لله تعالى بأنه هو سـبب تركهم الهداية، فقال سبحانه : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي لـو أن الله شـاء منعك من الهداية لما أرسـل إليك رسـله بآياته ، فلما أرسـلها إليك دلّ على أنه لم يمنعك من الهداية، ولكنك أعرضت عنها فكذبت واستكبرت وكنت من الكافرين[1].

ثـم ختم سـبحانه الحـوار كله ببيـان مصير مـن أنـاب إلى الله ومصير من كذب وكفر وتكبر ليعرف كل من الفريقين ثمرة عمله من هداية وضلال فقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وبذلـك يهلـك من هلك عـن بينة، ويحيى من حي عن بينة .

(١) إذا كانت الهداية بمعنى الدلالة على الحق فالآية على ظاهرها ، ويكون كذبهم وتكذيب الله لهـم واضـح المعنـى ليس فيه غمـوض ، وإذا كانت الهداية بمعنـى خلق الهدى في قلوبهـم ، فـالله لم يهدهم لعلمـه أنهم لا يختارون الهـدى فهم كاذبـون في زعمهم على معنى أنه سبحانه أراد لهم عدم الهداية فلم يختاروها بسبب ذلك، والله أعلم .

الفصل الثالث

نماذج من حوار القرآن مع المخالفين

في قضايا متنوعـــة

الفصل الثالث

نماذج من حوار القرآن مع المخالفين

في قضايا منوعة

اعبدوا ربكم الذي خلقكم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

تفسير البغوي ١٩ - تفسير أبي السعود ١/ ٥٨

هذه الآيات من الحوار مع الكافرين كما يتضح من معاني الحوار وأجزائه، مع ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما[2] من أن النداء بـ (يا أيها الناس) موجه إلى الكافرين حسب ما رأى في أساليب القرآن .

وهذا الحوار - من أنواع الحوار القرآني مع المخالفين - هو حوار مباشر يبدأ ويستمر بتوجيه الكلام إليهم مباشرة ، وذلك يدل المخاطبين على عناية

(١) سورة البقرة: الآيات ٢١-٢٤ .

(٢) ابن كثير ١/ ٥٤ عن علقمة تلميذ ابن مسعود رضي الله عنه .

الله عـز وجل بهم وبهدايتهم إلى الحق وتعريفهـم طريق الصواب، وليس ذلك خاصاً بهم بل هو عام لكل الناس، فناداهم بهذا الاسم الذي يشملهم ويشمل غيرهم.

وهو سبحانه يدعوهم إلى عبادته بوصفه رباً لهم أي مالكاً لهم ملك رعاية وإصـلاح ، ثـم ينبههم إلى ما يوجب هـذه العبادة لكن بعدما بـين لهم بالصفة الأولى « ربكـم » أنـه يدعوهـم إلى ما هو خير لهم تأليفـاً لقلوبهم وحثاً لهم على الاهتـمام بنصحـه، ثـم بيّن لهم الـذي يوجب عليهـم العبادة وهو أنـه خالقهم وخالـق الذيـن من قبلهم، وهذا يمهد لبيان القضيـة التالية قضية التوحيد فإذا كان الذي يوجب عليهم عبادته هو أنه خلقهم فهذا الوصف يقتضي ألا يعبدوا غـيره، لأن هـذا الوصف لا وجـود له عند غيره مما يتخذه النـاس آلهة ، ثم بيّن لهـم سـبحانه أن عبادته تجعلهم ممن ترجى لهم الوقايـة دون تعيين الشيء الذي يتقونه، وذلك يجعله عاماً شاملاً لكل ما يُخشى منه الضرر إذا هم لم يؤمنوا .

وهـذا النهـج في الحـوار كله ترفـق فيه نـداء يشـعر بالعنايـة ، ودعوة إلى عبادة مالكهم الذي يرعى شـؤونهم بالإصلاح ، وبيان لما يوجب العبادة التي يدعوهم إليها ، وبيان لنفع ذلك ، والترفق يستدعي الانتباه ويرجى معه القبول والاسـتجابة، كما قال الله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1]، وتسـتمر الآيات الكريمة على نهج الترفق عند انتقـال الحوار إلى القضية الثانية قضية التوحيد، وهو انتقال مع اتصال تام يجعل القضيتين واحدة لأن موجبات العبـادة لله هي نفسـها موجبات توحيـده، فكانت الأفعال التـي ذكر بها الرب

(١) سورة طه: الآية ٤٤ .

سبحانه عند الأمر بعبادته صفة له من جهة الأسلوب اللغوي، وجاءت الأفعال التـي ذكر بها عند الأمر بتوحيده والنهي عن الشرك به صفة له أيضاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ... ﴾، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ...﴾، ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾، وإنما فرقت حكمة الله في كلامه سبحانه بين هذين النوعين من الأفعال، فأمرت بالعبادة عند ذكر الخلق، وبالتوحيد عند ذكر المنعم، لأن دلالة الخلق على وجوب العبادة أظهر فالمصنوع عبد لصانعه وعليه أن يعبده – وإن كان ذلك يتضمن عدم استحقاق غير الصانع للعبادة إذ موجبها غير موجود عنده – ولكنه معنى مترتب على الأول وتابع له ، فيكون الأول ممهداً لذكر الثاني صراحة في الآية التالية، ومن جهة أخرى يتضمن ذكر النعم المتعددة تنبيهاً إلى ما في تعددها من دلائل التوحيد ؛ فهذه النعم لم تلق مبعثرة إلى الإنسان ، وإنما هي نعم مترابطة تدل على صانع واحد، ولم تمتد إليها يد أخرى فهي دالة على قدرة واحد أحد لا شريك له يتفضل على خلقه بما تصنعه قدرته فيستوجب بذلك أن يشكروه وحده على هذه النعم التي تفرد بخلقها من أجلهم : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ فكم في تمهيد الأرض كالفراش من الآيات ؟ لقد جعل ذلك لكم .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ وكم في بناء السماء من الآيات ؟ لقد جعل ذلك كله لكم .

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ﴾ فتعاضدت الأرض والسماء لإخراج هذه الثمرات، وهذه الثمرات رزق فيه منافع، وكل ذلك كان ﴿ رِّزْقًا لَّكُمْ ﴾، فهل يليق أن تعبدوا غيره وتجعلوه نداً له أي مثلاً وعديلاً ؟!

النتيجة الطبيعية لهذا كله أن لا تجعلوا له أنداداً فقد علمتم هذه الدلائل الموجبة لتوحيده وهجر ما سواه ، ولذلك جاء النهي عن اتخاذ الأنداد بعد هذه المقدمات ، وجاءت الفاء الدالة على الترتيب مقرونة بصدر جملة النهي ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾، وجاءت بعدها جملة الحال ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، وذلك يعني أن العلم بما سبق يتناقض مع اتخاذ الأنداد، ويتنافر معه منافرة بيِّنة لا خفاء فيها.

والمضمون الإجمالي لهذا يعني: إني أنعمت عليكم بهذه النعم العظيمة وسخرت لأجلكم السماء والأرض تسخيراً لا يقدر عليه غيري، فاشكروني ولا تشركوا معي من لم يفعل شيئاً من ذلك ولا يقدر عليه ، أي علم وأي إنصاف يأذن لصاحبه باتخاذ الأنداد ؟!

ثم ينتقل الحوار إلى قضية الرسالة الإلهية المنزلة على عبد الله ورسوله سيدنا ﷺ ، دون انتقال عن منهج الترفق في الحوار الذي بدأت به الآيات من قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ... ﴾ منهج تقديم الأدلة والدعوة بالتي هي أحسن والمحاورة العلمية : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وما أنزله الله تعالى على عبده هو هذا القرآن المشتمل على تفصيلات معنى عبادة الله ومعنى توحيده ، والانتقال إلى الحديث عنه بعدما تقدم هو أمر يستدعيه إتمام ما تقدّم لأنه لا تتم العبادة ولا التوحيد فيها بدون العلم بتفصيلاتها والإيمان بمصدر هذه التفصيلات وهو القرآن الكريم أنه منزل من عند الله الذي خلق الناس وتفضل بنعمه عليهم .

فكما جيء بالقضيتين مع برهانهما كذلك جيء بالثالثة ومعها برهانها، حيث نرى أن البرهان سيق في شأن عبادة الله وتوحيده مساقاً ليناً جُعل فيه البرهان صفة لله تعالى، وسيق هنا سوقاً صريحاً فيه تحديات ثلاثة ، ولكن هذا التحدي فيه طبيعة الحوار العلمي بلا توبيخ ولا سخرية ولا تهديد صريح، فهو لا يخرج عن نهج الترفق .

إن كان عندكم شك في أن هذا الكتاب أنزله الله ربكم - ومعنى ذلك أنه قول بشر مثلكم - وما كان من قول البشر يمكن لبشر آخر أن يأتي بمثله ، فعقولكم الحكم في هذه القضية ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ لا أطالبكم بقرآن كامل مثله ، ولا أطالبكم بعدد من السور ، ولا أطالبكم بسورة كبرى من سوره بل أكتفي منكم بأن تأتوا بمثل أي سورة منه ولو كانت الأقصر على الإطلاق، ولا أطالبكم بأن يأتي بهذا المثل واحد منكم أو جماعة قليلة بل استعينوا بكل من يشهد لكم غير الله تعالى إن كنتم صادقين منصفين في أنه ليس من عند الله أو أن فيه ما يدعو إلى الشك، فالبرهان موكول أمره إليكم .

ولذلك جاء بعده ما يبين واجبهم إن عجزوا : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولكن لا يخلي سبحانه الحوار من رفع درجة الحرص على التيقن من النتيجة في نفوسهم بإضافة عنصر آخر من عناصر التحدي وهو قوله سبحانه : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ وهو أمر لا يجرؤ عليه من يفكر في العواقب إلا أن يكون له ضمان من الله القادر على كل شيء العالم بالصغير والكبير من العواقب .

ومن باب الترفق أنه سبحانه لم يقل لهم مثلاً فإن لم تفعلوا ولم تؤمنوا فأنتم معاندون فسأعاقبكم بالنار التي وقودها الناس والحجارة ولكن يحثهم على وقاية نفوسهم منها وذلك لا يكون إلا بالإيمان بهذا القرآن أنه من عند الله ، ولا يقول لهم فأنتم كافرون ، ولكن يقول عن النار التي يأمرهم بوقاية نفوسهم منها : إنها أعدت للكافرين ، ومضمون ذلك أنهم يكونون حينئذ كافرين وجزاؤهم جزاء الكافرين ، فهو بيان ضمني يتجنب العنف الذي يدعو المخاطبين إلى العناد .

وفي القرآن آيات أخرى تسلك سبلاً أكثر ترفقاً في الحوار مع المخالفين ، كقوله تعالى في وصية موسى وهارون فيما يخاطبان به فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1] .

ثم بين لهما القول اللين فقال سبحانه : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[2] .

ويلاحظ أن مطلع هذه الآيات يصرح بأن يكون الحوار مع هذا الكافر المغرق في الكفر ليناً رفيقاً، وتصرح الآية بالغاية من هذا اللين ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ فهذا الترفق منهج له هدف مقصود .

بل نجد في بعض المواضع ترحماً ودعوة إلى التحسر تستثير شفقة غيرهم

---

(١) سورة طه: الآية ٤٤ .

(٢) سورة طه: الآيتان ٤٧، ٤٨ .

عليهم لعلهم أن يستدر ذلك شفقتهم على أنفسهم ويدعوهم إلى ترك العناد فيقبلون على الإيمان الذي يدرأ عنهم العذاب ، كما جاء في التعليق على هلاك أصحاب القرية في سورة « يس » : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ؟! [1] .

وهذا كله لا يعني أنه ليس في القرآن حوار عنيف مع الكافرين، بل هو موجود ولكنه مع أهل العناد والجحود الرافضين له وهم يعلمونه حقاً ، كما يأتي بيان ذلك في بيان نماذج منه في حوار القرآن مع كفار بني إسرائيل .

ولكل مقام مقال ، كما جرى به المثل عند العرب قديماً وحديثاً .

***

(١) سورة يس: الآيات ٢٩-٣١ .

اتبعوا من لا يسألكم أجراً :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾ [1] .

تفسير البغوي ١٠٧٦ - تفسير أبي السعود ٧/ ١٦١

(١) سورة يس ١٣-٣٢ .

في هـذه الآيات حـواران، وكنت أريـد الحديث عن الثاني منهـما بدءاً من قولـه تعـالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾، ولكـن منعنـي من ذلك قـوة التلاحم بينهما في الموضوع، وارتباط العبارات بعضها ببعض، فمن حيث الموضـوع يتحـدث الأول عـن قضية الرسـالة في نفسـها وعن الرسـل عليهم الصلاة والسـلام ، ويتم الثاني هذه القضية ، ويربطها بموضوع الرسـالة وهو الدعـوة إلى التوحيـد ، فمـن حيث ترابط العبـارات نجد قوله تعـالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فيه تأييد الرسـول الثالـث للاثنين اللذين قبله، ووصفهـم بما يدعو النـاس إلى طاعتهـم : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، ثـم يتابـع الحديـث عن موضوع الدعوة بما يـدل على أن المراد بها دعـوة هذين الاثنين، ثم يحاور قومـه فيها ، ولذلك كله كان الأمر الطبيعي هو الحديث عن الحوارين معاً إن شاء الله .

وأول مـا يلاحظ في الحوارين جميعاً هو قوة العناية الإلهية بهداية العباد إلى الحق والخير والرشـاد؛ فبدلاً من الرسـول الواحد أرسـل الله إليهـم اثنين، ثم عززهمـا بثالث بعـد تكذيبهما ، والنفس تميل إلى قبول الأخبار التي يجمع عليها عـدة مـن المخبرين ، وقد كان هـذا العدد تفضلاً وزيـادة في طمأنة قلوب أهل القرية، وإلا فإنّ الرسل يؤيد الله الواحد منهم بالمعجزات، وفيها الكفاية التامة في الإقناع فلا تكون الزيادة في عدد الرسل إلا تفضلاً منه سبحانه وتعالى .

وعبـارات الحـوار دالة على أن القـوم كانوا يؤمنون بـالله لكنهم يشركون

به ، لأنهم ذكروا اسم الله وسموه الرحمن حين نفوا وجود رسالاته سبحانه وتعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ ولا يكون العلم بذلك إلا عن طريق رسالة سابقة ورسول سابق وإن كان قديماً في الزمان.

وعبارة القوم تدلّ على أنهم ابتدؤوا حوارهم بالإصرار على الكفر فور ما قال لهم الرسل : ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ رغم ما في عبارة الرسل من تأكيد الخبر بإن واسمية الجملة وتقديم « إليكم »، وهو دال على قوة الاهتمام بهم، وقابل قومهم ذلك كله بالإصرار على الكفر، وعضدوا ذلك بالدليل - بزعمهم - وجعلوه في أول جوابهم ليبنى عليه إنكارهم الرسالة وتكذيبهم للرسل: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ .

ويظهر هذا الإصرار من العبارة الأولى : ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ أي لا يمكن أن يرسلكم الله فأنتم بشر مثلنا ، وأسلوب النفي والاستثناء يعطي القول قوةً وتأكيدَ إصرار، وزادوا تأكيد ذلك بقولهم « مثلنا » على معنى لا يمكن أن تكونوا رسلاً وأنتم بشر مثلنا في البشرية، لأن الله لا يمكن أن يرسل بشراً وإلا لخاطبنا كما خاطبكم، وأوحى إلينا كما أوحى إليكم ، وهذه دعوى ببرهان خاطئ لأن البشرية ليست هي الصفة الوحيدة المؤهلة للرسالة، فبالبداهة يعرف كل الناس أن الرسول لا بد أن يكون أميناً في القول والفعل فلا تلعب به الرغائب الخاصة والأغراض الشخصية ، وعلى هذا اعتمد الرجل الآتي من أقصى المدينة حين رد على قومه الكافرين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويكمل الإصرار على التكذيب حين يقول هؤلاء للرسل : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ

ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ بأسلوب النفي المؤكد بوجوه من التأكيد، أولها: تسليط النفي على كلمة « شيء» الشاملة للوحي كله، وبإدخال « من » عليها تأكيداً للعموم الشامل لأي جزء من الوحي ، سواء إلى هؤلاء الرسل أو إلى أي رسول ، وهذا الأسلوب يجعل التكذيب وإنكار الوحي إلى هؤلاء الرسل مبرهناً عليه عند قومهم ببرهان ثان كأنهم يقولون لهم : لم ينزل إليكم رسالة لأنه ما أنزل شيئاً أصلاً ، ثم ختموا هاتين المقدمتين بالنتيجة التي بنوها عليها وهي قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾، وهي نتيجة أكدوها لفظاً بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء بعدما أكدوها بطريق البرهان، واستغنوا عن العطف بكون هذه النتيجة جزءاً من حجتهم الثانية فهما كالشيء الواحد .

ولم يناقشهم الرسل في البراهين الوهمية التي قدموها ، كأنهم تركوا ذلك للشاهد القادم من أقصى المدينة ، وإنما أعادوا كلامهم السابق ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ لكن بتأكيد أكبر ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ ، فجملة « ربنا يعلم » و- هي بمنزلة القسم - معناها إشهاد لله تعالى على صدقهم قدموها على الخبر نفسه، ثم أكدوا الخبر بإن واللام: ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾، وأما قولهم ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فهو تأكيد بالمعنى واللفظ، إذ فيه إعلان أدائهم الرسالة إلى القوم أداءً مبيناً أي واضحاً مقروناً بالبراهين الكافية، وقد ذكروا ذلك بالنفي والاستثناء كأنهم يقولون : فنحن لم نقصر في حقكم ولا فيما أوجب الله علينا ، ولم يذكروا مضمون الرسالة ولا براهين البلاغ، ولا شك أنهم ذكروا ذلك لهم كما هو شأن الرسل ولكن لم تذكره الآيات هنا لأن ذلك

سيأتي في كلام الشاهد القادم من أقصى المدينة فيكون إيجازاً وتشويقاً إليه مثيراً للترقب يشد الانتباه إليه إذا ذكر .

أمّا القوم فأعلنوا إصرارهم على التكذيب مرة ثانية وقرنوا ذلك بإظهار الانزعاج من دعوتهم ومن محاورتهم فقالوا : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ وأتبعوا ذلك بالتهديد فقالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وهي عبارات مليئة بالوعيد المؤكد بوجوه من التأكيد، أولها: لام القسم « لَئِن »، وهي مكررة بعد ذلك، ومعها نون التوكيد الثقيلة مرتين ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ ﴾، وحقيقة الرجم الرمي بالحجارة، ويأتي بمعنى الطرد والمباعدة، والتهديد بالعذاب مبالغ فيه من وجهين: أولهما: التعبير بالمس، ويفيد هنا مباشرة العذاب لأجسادهم بخلاف ما لو قالوا لنعذبنكم فيفيد التعذيب إجمالاً ، وثانيهما: وصف العذاب بأنه أليم ، وتعبيراً عن الحقد والحنق قالوا: ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا ﴾ فكلمة « مِّنَّا » يمكن فهم المراد منها دون ذكرها، فذكرها إظهاراً لغيظهم ورغبتهم في التعذيب والانتقام ممن ذكَّرهم ودعاهم إلى الله .

ولم يدع الرسل موعظة قومهم – رغم التهديد والوعيد الشديد – بل حاوروهم في شأن هذا الزعم، فبينوا لهم بذلك أنهم لا يبالون بالتهديد في سبيل إبلاغ ما أرسلوا به بل في سبيل نصحهم لقومهم فقالوا لهم: ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾، أي إن ما وقع من الشؤم أو البلاء عليكم إنما هو بسبب كفركم وسائر أعمالكم السيئة فأنتم الذين أوقعتموه بأنفسكم وليس بسببنا ، ثم استأنفوا الكلام في إقامة الحجة على بطلان هذا الادعاء فقالوا : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾

أي أتزعمون أنكم أصابكم الشؤم بتذكيرنا لكم حقوق الله عليكم في التوحيد والطاعة ؟ فالتذكير لا يمكن أن يأتي بشرٍّ ، ثم أوضحوا لهم ما هو السبب الحقيقي لما نزل بهم من الشؤم فقالوا : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ فالإسراف في التعدي والإعراض عن طاعة الله هو الذي يأتي بالشؤم على أهله ، وليس المراد بالإسراف هنا إضاعة المال فيما لا يجدي، بل المراد تجاوز الحد في الضلال والإعراض عن الهدى ، وقد تبين ذلك في كلامهم السابق : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ وقولهم للرسل : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ثم افتتحت الآيات حواراً آخر على لسان رجل من القرية يقوي الحوار الأول وهو أن هؤلاء الناصحين رسل من عند الله سبحانه وتعالى – وحق رسل الله أن يطاعوا – وبدأت الآيات ببيان ما يستدعي قبول قوله : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، فهو أولاً ابن بلدتهم فهم أعرف به وبصدقه وصلاحه ، وهم ثانياً قومه ، والمرء يحرص على الخير لقومه ولا يرضى أن يغشهم أحد ، وهو ثالثاً جاد مجتهد في نصحهم مُجدٌّ فيه، ولذلك ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يسعى أي جاء باهتمام ، ثم حين قدم لهم نصحه أقام ذلك على البرهان الموجب لاتباع الرسل عليهم السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فناداهم بصفة القرابة بينه وبينهم، ترفقاً بهم واستمالة لقلوبهم، ودفعاً لتهمة الفسق عن نفسه في نصحهم ، وأمرهم باتباع المرسلين ، فمن كان مرسلاً من عند الله لا يدل

إلا على الخير والفلاح، فحقه أن يطاع، ثم بين لهم أن حال الرسل ينفي عنهم الشبهة التي تمنع من التصديق : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ فلا ينبغي أن يظن به أن يكذب جلياً للمنفعة العاجلة ، وتنكير لفظ الأجر في سياق النفي يجعله شاملاً لما كثر من الأجر وما كان في غاية القلة ، ومن جهة ثانية ﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أي إن في حالهم من الهدى اعتقاداً وعملاً وخلقاً ما ينفي عنهم التهمة بالكذب ، والناس يشكون في من ينقل لهم خبراً إما لأنه يجلب به إلى نفسه نفعاً وإما لأنه ذو سلوك غير مستقيم، وكلا الأمرين منفي عن هؤلاء الرسل عليهم السلام ، وإذا انتفت الشبهة فرض التصديق نفسه بمنطق العقل والفطرة وفرض الاستجابة .

ثم انتقل هذا الناصح إلى إقامة الحجة على وجوب اتباع الرسل عليهم السلام من وجه آخر هو مضمون دعوة الرسل عليهم السلام وبين بالبرهان أن هذا المضمون يوجب اتباع الرسل فيما يدعون إليه فقال : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ .

وفي هذه الآية من وجوه حكمة الدعوة وترفقها وبراهينها وبيانها ما يملأ العين والقلب فقوله : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فيه تعجب واستنكار لترك عبادة الله على الوجه القويم أي بتوحيد ، وهو لم يكن مشركاً بالله فحق الكلام في الأصل أن يقول لهم : « وما لكم لا تعبدون الذي فطركم »، ولكنه عدل عن ذلك ترفقاً بهم لئلا ينفروا، ووجّه التعجب والإنكار إلى نفسه وأوضح أنهما موجهان إليه من أجل هذا الفعل، فيتوجهان إلى كل من فعله – والسامعون أولهم – وقوله :

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ في خطاب من يعبدون الله ويشركون به بيان لكون عبادتهم لإفسادهم إياها كمن لا يعبد الله أصلاً، وفي تعبيره بلفظ ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وجوه من أساليب البيان إذ الكلام مراد به البرهان على فساد ترك عبادته سبحانه وتعالى بمنطق العقل والفطرة ، فالأصل أن يقول لهم: ينبغي لي أن أعبد الله لأنه فطرني أي أوجدني من العدم، فالمعبود إنما يستحق العبادة لأنه أوجد من يعبده، فلا داعي لي ولا برهان ولا نفع في أن أترك عبادته وحده وأعبد معه غيره، فهذا عجيب مستنكر في العقل والفطرة ، ولكن الكلام لم يأت في القرآن الكريم على هذا الوجه الذي أفترض لأنه سياق حوار فلسفي لا يحرك القلوب كثيراً ولا يهز الشعور الفطري الذي يدفع إلى الخير دفعاً .

فجاء الأسلوب القرآني موجزاً في ألفاظ يسيرة بهذه المعاني كلها فبدأ بالاستفهام تعجباً واستنكاراً من ترك عبادة الله ، واختار ذكر الصفة ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وهي التي توجب العبادة له وحده واستغنى بها عن ذكر الموصوف سبحانه وتعالى ، وأفاد بالإنكار نفي كل سبب معقول في ترك هذه العبادة أي لا حجة ولا نفع ولا داعي مطلقاً لترك عبادته سبحانه وتعالى وفي هذا الكلام – بسبب مباشرة ﴿ لَآ أَعۡبُدُ ﴾ لـ ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾، والفطر يوجب عبادته – تنافر شديد بين ترك العبادة وبين ما يوجبها يجعل تارك هذه العبادة يشعر بشناعة حاله وخزيه من أفعاله .

وكان يكفي لإقامة الحجة أن يقول : ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ لأن عبادته وجبت

بكونـه فاطراً لكن يـاء المتكلم أضافت معنى آخر يسـتوجب التوحيد من هذا المتكلـم شـكراً لإنعامه عليه بالإيجـاد ، ثم أضاف هذا الناصح سـبباً آخر يزيد نكارة الشرك بالله تعالى ويظهر فضيلة مضمون رسـالة الرسـل عليهم السـلام فقـال: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ أي أن الرجـوع إليـه أيضاً يدعـو إلى عبادته وحده إذ كيـف يقـدم العبد على ربـه دون أن يعبده وحده وقد قامـت عليه الحجة في وجـوب ذلك ؟ ويظهر مـن قوله ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ - وهو انتقال من توجيه الإنكار إلى نفسـه في الجملة السـابقة إلى توجيه الخطاب إليهم في هذه الجملة - أن القوم لم يكونوا كافرين باليوم الآخر مع ما هم عليه من الشرك كما هو حال كثير من المشركين كالنصارى ، وتوجيه الخطاب إليهم في هذه الحال لا ينفرهم بل هو أدعى لإقامة حجة التوحيد المذكورة عليهم .

ثـم عاد هـذا الناصـح إلى الحوار حـول قضيـة التوحيد وإيضـاح بطلان دعوى وجود الشركاء ، وعاد إلى نهج الترفق فوجه الإنكار والتوبيخ إلى نفسه : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾، وسـاق هـذا الـكلام بعـد ذاك بـدون أدوات العطـف، لأنـه قضية واحـدة، فبعدمـا تناولها هنـاك بإقامة الحجـة على صحة التوحيد وصوابه، وفيه إبطال للشرك والشركاء، تناولها هنا من جانب آخر وهو عـدم الجـدوى في عبادتهـا : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ ، لكن الكلام متواصل فقوله : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ إنـكار توبيخي مبني على البرهان السـابق ، أي من كان فاطراً للخلق مرجوعاً إليه لا يعقل أن يعبد معه إله آخر .

وقد بين أن عدم الفائدة من اتخاذها لأنها لا تدفع ضراً أراده الله لمخلوق بشفاعة عند الله – إذ لا شفيع إلا من بعد إذنه – ولا قدرة لها على دفع الضر بنفسها ، فيكون اتخاذها مستنكراً في العقل والفطرة يخزى به من يفعله لو تعقل، وقد عبرت الآية بما يفيد نفي الجدوى من اتخاذهم أتم النفي، فنفت الإغناء مهما كان قليلاً ﴿ شَيْـًٔا ﴾ والنكرة في سياق النفي تعم ، ونفت الإنقاذ أيضاً بصيغة الفعل في سياق النفي وهو يعم نفي أي شيء من الإنقاذ ، ثم أظهر الحكم على الشرك تمام الإظهار – لكن لم يترك أسلوب الترفق – فقال: ﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وقوله : ﴿إِذًا ﴾ يعني إني إذا فعلت ذلك كنت في قلب الضلال المبين، أي الذي يبين عن نفسه أنه ضلال ، فكلمة « إذاً » تنبيه على سبب الضلال وهم آخذون من هذا السبب بالنصيب الأوفر فالخطاب يصيبهم بمضمونه وقصده وإن لم يصبهم بلفظه ثم ختم نصيحته بقوله : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾، وفي ذلك معنيان يقويان دواعي سماع نصحه: أولهما أنه يدعوهم إلى الإيمان بربهم ولم يقل إلى الله، ولا قال : إلى ربي، لأن من معاني الرب أنه الخالق الراعي المصلح لشؤون مربوبه وذلك يوجب الإيمان به ولذا عطف عليه الأمر بسماع نصحه « بالفاء » وهي تفيد الترتيب كترتيب المسبب عن السبب ، وإضافة إلى ضميرهم ﴿بِرَبِّكُمْ ﴾ تنبيهاً إلى فضله عليهم بربوبيته، ثانيهما أنه أخبرهم بأنه آمن به سبحانه وتعالى أي قد سبقهم إلى ما نصحهم به والمرء لا يغش نفسه وذلك يقوي الثقة به ويرغب به من يقتدي .

وقد جاء في الروايات الحديثية أن قومه قتلوه ، والآية مشعرة بذلك : ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ وذلك لا يكون إلا بعد الموت سواء قلنا بأنه دخل الجنة حقيقة أي بروحه كحال الشهداء ، أو قلنا إنه عرض عليه مقامه في الجنة فهو دخول تقدير لا دخول فعل ، وظل حريصاً على هداية قومه بعد موته، وتمنى أن يعلموا بشأنه وإكرامه عند ربه لعلهم يؤمنون.

وقد استوجب القوم بقتله عقاب الله فلم يأتهم بعده رسول إذ لا فائدة في الإرسال إلى من يقتل الرسل بل جاء العذاب العام : ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾ .

وفي هذه الآيات الأخيرة إخبار من الله تعالى بحال القوم ليعتبر الناس بهم مع إيضاح العبرة ، وأعجب ما في ذلك قوله سبحانه وتعالى في نهاية الخبر وبداية بيان العبرة ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ ، كأنه يقول : يا من يريد أن يتحسر على أمر جدير بالحسرة فليتحسر على هذا الشأن من شؤون العباد وهو أنهم ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ .

ووجه كونه عجيباً أن الله تعالى أظهر به أن رحمته بهم أحب إليه من عذابهم لـو آمنوا واتبعوا رسـلهم، وأنه سـبحانه وتعالى يحب الرفـق بعباده ولكنهم يأبون هذا الرفق بكفرهم وإيذاء الرسل عليهم السلام ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فهم الذين يجلبون لأنفسهم الدمار والعذاب ، وهذا الرفـق يظهر في عباده المرسـلين حين يدعون أقوامهـم إلى الإيمان بالله تعالى، ثم بين الله سـبحانه وتعالى العبرة للناس مـن مصائر الأقوام الهالكين فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾، أي ألا يعتـبرون بمصائـر الأقـوام الكثيريـن الذيـن أهلكناهم لكفرهـم وتكذيبهم رسـلهم ، ثم ختم سـبحانه وتعالى سَـوْقَ العبرة بقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي ما من قوم من أولئك إلا وسـيجمعون لدينا ويحضرون لدينا للحسـاب بعد عقوبة الدنيا ، وهذه العبرة خلاصة العبر كلها ، والله تعالى أعلم .

* * *

يخادعون الله :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

تفسير البغوي ١٧ - تفسير أبي السعود ١/ ٣٩

في هذه الآيات حوار من حوارات القرآن مع المخالفين ، ولكنه حوار غير مباشر ، يذكر أقوالهم وأعمالهم ويرد عليها من دون أن يوجه الخطاب إليهم إشعاراً بإبعادهم، وهو حوار فيه شدة شديدة كأنما هي ضربات على الوجوه، وذلك يناسب ما هم عليه من النفاق يظهرون الإيمان ويفعلون ما يناقضه بقصد الخداع وجزاؤهم الردع .

(١) سورة البقرة: الآيات ٨-١٦ .

ويبدأ الحوار – لا معهم بل مع مخاطبين غيرهم أقرب ما يمكن أن يكونوا هم المسلمين – يبدأ بالتعريف بهم كصنف من الناس لا كجماعة موجودة بين المسلمين، وهذا يناسب قصد إبعادهم ومجافاتهم ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إذن فهم منافقون ضعفوا عن إبداء كفرهم فلجؤوا إلى الخداع : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيرد الله تعالى على عملهم هذا أولاً بأنه لا يضر أحداً وإنما يضرهم وحدهم ويقع عليهم وحدهم ، وهم غافلون عن ذلك : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهذا يشعرهم بضرورة النظر في شأن أنفسهم ومراجعة ما هم عليه، وذلك من دواعي التراجع عن الباطل إذا علم صاحبه أنه يضر بنفسه ، وهذا من مقاصد الآية رغم أن السياق سياق زجر وتوبيخ وسخرية ، وليس حواراً يقدم الأدلة لمن يجهلها والبراهين لمن لا يعلمها .

ويرد عليهم ثانياً ببيان أن سبب خطئهم هذا ليس جهلاً يداوى بالعلم ولكنه نفاق دعاهم إليه شك في الدين ، ويسمى الشك مرضاً ليشعرهم بأن هذا النفاق قد أفسد قلوبهم وأضرّ بها، ويبين لهم أنه جازاهم على نفاقهم بزيادة مرض هو الشك والحيرة ، وأوجب لهم جزاءً آخر هو العذاب الأليم، ويصرِّح بأن سبب ذلك هو كذبهم أي إظهارهم الإيمان وهم غير مؤمنين ، وليس المراد الكذب الذي يكون في الخبر العادي ، وهذا كله مع ما فيه من الزواجر يتضمن دعوتهم إلى مراجعة أنفسهم ، لا ببيان الدلائل والبراهين لأنهم لا يجهلونها، بل بكشف إضرارهم بأنفسهم لعلهم يرجعون ، ثم تعرض الآيات صور

نفاقهم – وصور نفاقهم كثيرة – ولكن الآيات تذكر ما يتعلق منها بمواقفهم القائمة على نفاقهم في علاقتهم مع عموم المسلمين حيث كانوا يوالون اليهود ويتآمرون معهم على النبي ﷺ والمؤمنين به من المهاجرين والأنصار ويسيئون إليه ﷺ وإليهم وإلى دينهم .

في الصورة الأولى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بتآمركم مع اليهود وبكيدكم للنبي والذين معه ﷺ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ وهذا عناد ومبالغة في النفاق فهم لا يدعون أنهم مصلحون فقط ، بل يزعمون – كما دلت كلمة إنما – أن كل أعمالهم إصلاح، ولا يفعلون شيئاً من الإفساد .

ولذلك أجابهم الله تعالى بحصر الإفساد فيهم وكمال هذا الإفساد حتى إن سواهم لا يعد عمله إفساداً بالنسبة إليهم فيقول سبحانه : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ، فيبدأ بأداة التنبيه « ألا » ليلفت بها الأنظار ويؤكد الجملة بأداة التوكيد « إن » ويعرف الخبر بالألف واللام لبيان أنهم جامعون لأطراف الإفساد كلها وذلك يحصر الإفساد فيهم، ثم يؤكد هذا الحصر بضمير الفصل « هم » بين المبتدأ والخبر ، وهذا الكلام ليس بدفع الشبهة وإقامة الدلائل على الحق لأنهم لا يجهلون الحق بل يعاندونه ، وإنما هو زجر وتوبيخ وإهانة ، ويأتي قوله سبحانه : ﴿ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ إكمالاً لهذا التوبيخ لا التماساً للعذر بإثبات أنهم جاهلون بما يفسدون وما هو حقيقة حالهم ، ومعنى ذلك أنهم لإغراقهم في الإفساد صاروا كمن لا يدري ماذا يفعل بحيث يغفل عن أخطائه المضرة به

فلا يحس بها مع أنها ظاهرة كل الظهور فهو ميت الشعور كأنه لا شعور له ألبته وهذه غاية التوبيخ ومنتهاه .

وفي الصورة الثانية يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ ﴾، وفي كلامهم هذا غرور وتكبر واحتقار لأهل الإيمان فوق ما فيه من كفر وجحود، والعاقل لا يفعل ذلك إنما يعتذر حين يكون صادقاً في عذره بأنه لم يظهر له ما يدعوه إلى الإيمان وبنحو ذلك من الأعذار ، إذ ليس في قول من قال لهم : ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ ما يدعو إلى سوء الجواب ، إنما هو دعوة إلى الإيمان بطريق التدبر والنظر الذي يسير عليه الناس من حولهم وهم يعلمون أن هؤلاء الناس عقلاء ذوو رأي وتدبير ، وإذا هم – بدلاً من أن يؤمنوا كما آمن الناس أو يعتذروا بعذر الصادقين – يجيبون جواب المتكبرين الجاحدين المحتقرين لسواهم المستنكرين ما فعله المؤمنون فيقولون ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ والسفيه هو ضعيف العقل الطائش في أقواله وأفعاله ، وهذا طعن في دين الله تعالى إذ السفهاء لا يعرفون أن يختاروا ما هو حق وخير ، ولذلك جاءهم الجواب من الله تعالى ردعاً وزجراً وإهانة ، لا تعليماً وتوضيحاً للحق إذ هو غير خاف عليهم فقال سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ بعبارة شبيهة بما تقدم من الجواب في الآية السابقة، لكن جاء الكلام هنا بنفي العلم وهناك بنفي الشعور لأن الإفساد شيء ظاهر يدرك بالشعور بينما الإيمان أمر عقلي علمي يدرك بالعلم .

وفي الصورة الثانية قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

وفي هذه الصورة ينكشف نفاقهم جلياً بصريح أقوالهم : يقولون للمؤمنين: « آمنا »، ويقولون لأصحابهم في الكفر والنفاق : « إنّا معكم » بالتأكيد [1]، ويؤكدون استهزاءهم بأنهم ليسوا إلا مستهزئين ، وأصحابهم هؤلاء ليسوا منافقين عاديين في نفاقهم بل هم قادة في النفاق يدعون إليه ويحتالون في دعوتهم ويزينون لأصحابهم النفاق كما تفعل الشياطين ولذلك أطلق القرآن عليهم اسم الشياطين كشفاً لحقيقتهم .

وجاء الرد من الله تعالى على استهزائهم باستهزائه، وشتان ما بين الاستهزاءين، ولذلك صدرت الجملة باسمه سبحانه ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ إظهاراً للفرق العظيم بين عدوانهم بالاستهزاء ورد هذا العدوان من عند الله تعالى ، ثم أضاف إلى ذلك سبحانه أنه ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يزيدهم – مع أنهم طاغون – ويتركهم فلا يعجل بإهلاكهم فيستمرون في حيرتهم وترددهم كما قال سبحانه ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾[2] فتزداد عقوبتهم .

وهذا الرد كالذي سبق من الردود ليس فيه عرض للقضية وإقامة للأدلة ولكن توبيخ وزجر وإهانة لأن القوم ليسوا في حال استعلام ولا في حال إنكار

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٨ .

قائم على استدلال أياً كان، إنما هم مستهزئون كما صرَّحوا بألسنتهم، جاحدون رافضون لقبول الحق.

وكما بدأت الآيات بذكرهم وهم مستبعدون عن الحوار ختمت بمثل ذلك وكأنها تشرح حالهم لغيرهم وتبين حقيقتهم ودوافعهم وثمرة ذلك فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

والإشارة إليهم بكلمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تصور ما سبق من اعتقادهم وأقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم، كأنهم مشاهدون ينظر إليهم الناس، وشؤونهم هذه بادية في صورتهم كالبرهان على أنهم ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فهذه الأمور لا تكون إلا ممن يأخذون الضلالة وهم حريصون عليها حرص المشتري على البضاعة التي يبذل فيها المال ويتركون الهدى ترك المشتري ما يبذله من مال في مقابل بضاعة هي عنده أهم منه وأعز عليه، ولما كان كل عاقل يعلم أن الهدى خير والضلالة شر كانت النتيجة الطبيعية لذلك التبديل أنهم ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾، بل قد خسروا خسارة فادحة إذ قد ضلوا ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

وهذه الآية لخصت ما سبق من شؤونهم وحكمت عليهم بما يستحقون ومع ذلك لم تخرج عن نهج ما تقدم في الحوار من التوبيخ والذم والإهانة، فهم لم يسيروا على طريق البحث عن الحق والإيمان به حينما يظهر، بل سلكوا طريق

الغوايـة وأمعنوا في شـعابه ، فلا هم نفعوا أنفسـهم ولا هم كفـوا أذاهم عمن سـلك طريـق الهداية، ومـن كان كذلـك كان الأجدى في الحـوار معه هو نهج السخرية والذم والتوبيخ لا نهج كشف الحقائق وإقامة الدلائل والبراهين .

والآيـات القادمـة في القرآن بعد هذا هي تشـبيهات تمثـل حالهم فتزيدها وضوحاً وتزيدها تأثيراً في النفوس، نفوس من راجع نفسه من هؤلاء المنافقين، ونفـوس من حولهم من المؤمنين وعموم الناس، وهو تأثير ينفر السـامعين من تلك الأحوال ويملأ قلوبهم خشـية من العواقب السيئة التي نالت المنافقين أو هددوا بها في المستقبل من الحياة الدنيا والآخرة .

وشرح هذه الأفعال فيه فائدة إذ هي تكميل لهذا الحوار من جهة الإيضاح والتأثير ، وفي ما تقدم كفاية إن شاء الله عن التوسع دفعاً للملل .

* * *

الخاتمـــــة

لقد كان للقرآن الكريم أثر عظيم في هداية الناس إلى الإيمان والإسـلام ، وما قصة إسـلام عمر رضي الله عنه عن قارئ السـيرة ببعيد ، ولا قصة إذعان عتبـة بـن ربيعة ببعيد أيضاً ، ولا ريب أن لحوار القـرآن مع المخالفين أثراً كبيراً في تغـير هؤلاء ، ولذلـك كان هذا الحوار جديراً بالدراسـة التفصيلية المتقصية لأصوله وأساليبه، وهو أمر كبير وشاق يحتاج إلى عمل متواصل وبحث دؤوب طويل، وقد اقتصرت منه على موجز يقرب ويوضح ولا يستقصي فكانت هذه الصفحات التي تقدمت .

وكانت المقدمة بياناً للأهمية وأيضاً للمقصود وتتابعت الأبواب والفصول عـلى قلتها واختصارهـا في تفصيل ذلك فكان البـاب الأول بفصليه يمثل كل منهـما جملة أصول من أصول الحوار القرآني مع المخالفين وهو الفصل الأول ، وجملة من الأساليب وهو الفصل الثاني .

فمـن الأصول أن القـرآن الكريم كان يحتج على المخالفـين بما لا يمكنهم إنكاره لا بما هو حق عند المؤمنين أو ذوي العقول السليمة فقط كقوله سبحانه على لسـان نبيـه إبراهيم لقومـه : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[1]، وهـذا إبراز جهير للتناقض كما سبق عند ذكر الآية بيانه .

ومـن الأصول القرآنيـة أن ينقض دعوى الخصم بما يشـهد الواقع به ولا

(١) سورة الصافات: الآية ٩٥ .

يملك الخصم فيه جواباً كقوله سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾[1].

ومن أصول الحوار القرآني مع المخالفين أن يكشف لهم الشبهات التي أضلّتهم كقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

ومن أصول الحوار القرآني معهم أن يحتج عليهم بما يقرون ، وإن لم يسلِّم لهم كقوله سبحانه : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾[3]، أي أنتم تفضلون البنين، وزعمكم أن الملائكة بنات الله سبحانه يعني أنه اختار لنفسه شيئاً هو دون ما اختار لكم ، وهذا كله افتراض لأن الملائكة ليسوا بناته .

ومن أصول الحوار القرآني معهم أن يقررهم بما يقرون به وهو يستلزم الإقرار بما ينكرونه من الحق كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾[4]، وتصديقهم بهذا معلوم لكن المراد إلزامهم بما هو مثله وهو إعادة خلقهم يوم القيامة .

ومن هذه الأصول أن يلجئ المخاطبين إلى أمرين يعجزون عن ادعاء

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨ .
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٢٦، ٢٧ .
(٣) سورة الزخرف: الآية ١٦ .
(٤) سورة الواقعة: الآية ٥٧ .

أحدهما ويدينون أنفسهم إذا ادعوا الآخر : كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

ومن هذه الأصول أن يُظهر النبي ﷺ - بأمر القرآن - أنه مستعد لاتباع ما يقولون من الباطل لو استطاعوا إثبات كونه حقاً، ولكن بعد أن يقدم من الأدلة ما يدل على أن قولهم باطل قطعاً ، كما تحدث عن التوحيد حديثاً مطولاً ثم قال للمشركين : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[2]، وكل الأدلة تقول لهم إن هذا مستحيل .

وباب الأصول القرآنية في الحوار مع المخالفين باب واسع هذه أمثلة منه تحاول أن تظهر عظمة هذا الحوار وعظمة أصوله بتوفيق الله تعالى باختصار يلفت النظر إليها، لا باستقصاء يجمعها.

وأمّا الفصل الثاني من الباب الأول وهو أساليب الحوار القرآني مع المخالفين فهو لا يتناول تفصيل الأسس العقلية والعلمية في الحوار كالفصل السابق بل يتناول جانباً آخر هو طريقة التأثير على النفس حين مخاطبة العقول من ترفق وترغيب أو شدة وترهيب ونحو ذلك .

فنرى القرآن الكريم يترفق في الحوار مع المخالفين حتى مع أشدهم عناداً

(١) سورة البقرة: الآية ٨٠ .
(٢) سورة الزخرف: الآية ٨١ .

قبل أن يصبح هذا العناد جهاراً بواحاً كقوله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[1]، ونحو هذا بل أظهر منه قوله سبحانه وتعالى بعد ذكر أهل القرية الذين هددوا أنبياءهم وقتلوا مَنْ نصحهم باتباعهم: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[2]، وهذا للتأثير على من يسمع قصصهم.

ومن الأساليب القرآنية في حوار المخالفين أن يزجرهم أشد الزجر ويهددهم بأشد العذاب - إن لم يستجيبوا - وذلك ليكسر عنادهم فلعلهم بعد كسر العناد يستجيبون كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[3].

وقد يجمع الحوار الترفق والترغيب مع الشدة والترهيب ومعهما براهين الحق كما جاء في حوار مؤمن آل فرعون من سورة غافر وهو طويل يمكن الرجوع إليه.

ومن أساليب الحوار القرآني مع المخالفين أن يكون عقب قصة تثير مكان العبرة في النفوس، ثم يأتي بعدها الحوار فيكون أثره في النفس أكبر كقوله تعالى

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٢) سورة يس: الآية ٣٠.

(٣) سورة الفرقان: الآيتان ٢١، ٢٢.

بعد عرض قصة قوم هود عليه السلام في سورة الأحقاف : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾[1] ... إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[2]، وهذا الحوار جاء بعد القصة ليكون الأسلوب أعظم تأثيراً والله أعلم .

والأساليب في حوار القرآن كثيرة وآثارها عظيمة وما هذا المذكور إلا نماذج .

ثم جاء الباب الثاني وهو كله بفصوله الثلاثة عبارة عن نماذج مشروحة من الحوار تمتزج فيها الأصول والأساليب لتؤدي نتائجها الباهرة، وهو مكون من ثلاثة فصول كل منها يوضح قضية، فالفصل الأول نماذج من الحوار حول قضية (التوحيد) كل منها يتناولها من جانب، والفصل الثاني نماذج من الحوار حول قضية (البعث) وكل منها يتناولها من جانب، والثالث هو نماذج متنوعة، والجميع جانب تطبيقي لرؤية الأصول والأساليب .

وعسى أن يكون الله وفقني إلى الصواب والخير ويتقبل ذلك مني ولله الحمد أولاً وأخيراً .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٢٦ .

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٨ .

الفهرس

الموضـــــــــــوع	ص
- الافتتاحية	٥
- المقدمـــة	٧
الباب الأول: الأصول والأسـاليب في حوار القـرآن مع المخالفين	١١
الفصل الأول: أصول الحـوار القرآني مع المخالفين	١٥
الفصل الثاني: أسـاليب الحوار القرآني مع المخالفين	٣٣
البـاب الثاني : نماذج من حوار القرآن مـع المخالفين	٥٣
الفصـل الأول: حوارات في قضيـة توحيـد الله	٥٧
الفصـل الثاني: حوارات في قضية البعث والجـزاء	٨٧
الفصل الثالـث: حوارات في قضايا متنوعـة	١٠٧
- الخاتمـــة	١٣٥
- الفهرس	١٤٠